# الربيعُ يتجدَّد كلّ عام

## قصص قصيرة

**اسم الكتاب:** الربيع يتجدد كل عام

**المؤلف:** أيمن الوليلي

**رقم الطبعة:** الأولى

**تاريخ الإصدار:** ١٤٤٠هـ/ ٢٠١٩م

جميع الحقوق محفوظة للناشر

**رقم الإيداع:** 2920 / 2019

**الترقيم الدولي:** 978-977-6697-26-3

**العنوان:** القاهرة

**الهواتف:**

**المبيعات:** ٠٠٢٠١١١٠١١٧٤٤٧

**الإدارة:** ٠٠٢٠١٠٠٦٣٣٠١٢٩

**الموقع:** info@mobdeuon.com

**البريد:** www.mobdeuon.com

# الربيعُ يتجدَّد كلّ عام

## قصص قصيرة

أيمن الوليلي

# إهداء

إلى أبي..

روحك ترفرف دائمًا فوق عالَمِي أينما حللتُ

إلى زوجتي وأبنائي..

هذه الحروف قطرات من دمي باقية إن بَلِي الجسد

إلى الإنسان الذي أكرمه الله ، ونفخ فيه من روحه..

بحثًا عن المعنى والقيمة.

إليكم أهدي كلماتي

**أيمن الولبلي**

# مُقَدِّمَة

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وسلم.

بين دَفَّتي الكتيب مجموعة أعمال قصصية كُتبت في الفترة من عام ٢٠١٣م وعام ٢٠١٨م.. تراوحت بين رواية قصيرة وقصص وأقاصيص.. كُتبت دون ترتيب في فترة عصيبة تمر بها الأمة بعد انتكاس ثورات الربيع العربي، وانكسار آمال الشعوب في حياة كريمة.. لذا جاءت بعض الكتابات انعكاسًا لأحداث هذه الفترة، والتي لازالت ممتدة حتى نشر هذه المجموعة.. والبعض الآخر كانت تعبيرًا عن تفاعلات الإنسان الحياتية مع الزمان والمكان من ناحية، والبشر والسلطة من ناحية ثانية.. وآماله وطموحاته من ناحية ثالثة.. سعيًا إلى تحقيق القيَم التي منحها الله -عز وجل- إياها.. قيَم الحق والعدل والمساواة، بما يُمَكِّنه من إعمار الكون كخليفة الله على الأرض.

هذه أولى منشوراتي المطبوعة، ولكن سبق نشر مقتطفات على صفحتي الأدبية على موقع الفيسبوك، وعلى مدونتي الخاصة على الويب.

وقد ألحّ كثيرٌ من الأخيار في تجميع هذه الكتابات المتناثرة بين دَفَّتي كتاب مطبوع.. غير أني لم أحرص على هذا الأمر؛ لما أراه من انصراف الشباب عن الحروف الورقية؛ نتيجةً لسيطرة تكنولوجيا الإنترنت بأشكالها المتعدِّدة على ثقافة الجيل الحالي.

ما دعاني لنشر هذه الكتابات هو إدراكي أن التكنولوجيا على ما قدَّمته للبشرية من رفاهية؛ إلا أنها لا تُغْني عن متعة اقتناء الكتاب المطبوع بين يدي القارئ وامتلاكه للحروف.. كما أن الكلمة المطبوعة تبقى كيانًا وأثرًا ملموسًا عبر الزمن، بما تحمله من أفكار ومعانٍ وقيَم.

وأخيرًا، فإن الكلمة رسالة، وأدعو الله العليّ القدير أن تكون سطوري هذه ذات هدف ومعنًى، لا رياءَ فيها ولا سمعةً، وأن تكون ثقلاً في ميزاني يوم يقوم الناس لله تعالى.

والحمد لله رب العالمين.

أيمن الولبلي
ayman.hsanin@gmail.com

# الربيع يتجدد كل عام

-١-

## ربيع الحسيني

ذلك الشاب العاشق للحياة الذي وضع الهجرة إلى أوروبا هدفه الأوحد في الحياة. وكيف لا وقد نشأ في حي الأنفوشي؛ حيث احترف الشباب الهجرة غير الشرعية إلى إيطاليا واليونان، لكن لسوء حظه أن جميع محاولاته للسير في هذا المسلك باءت بالفشل لدرجة أنه في آخر محاولة كان قاب قوسين من الوصول إلى جزيرة سردينيا، لولا أن صاحب القارب وَشَى بهم لخلافات مادية دبّت بينه وبين المُهَرِّب، فقام الأخير بإبلاغ الشرطة مدعيًا أن قاربه قد سُرِقَ، وظل ربيع رَهْن الاحتجاز قرابة الشهرين حتى تمّ ترحيله إلى أرض الوطن مرة أخرى.

كان حافظًا لكثير من سور القرآن الكريم، ولعله الميراث الروحي لجده لأبيه؛ إذ كان من مريدي الطرق الصوفية.

الحق أنه كانت له تلاوة مميزة يَصْدَح بها من حين لآخر، سألني يومًا بعد تلاوة خاشعة ملأت وجهه نورًا وبشرًا.

- تعرف يا زيزو القرآن أجمل شيء خلقه الله.

فصححتُ له المعلومة، وشرحت له أن القرآن ليس بمخلوق، وإنما كلام الله -عز وجل-.

فصاح ساخرًا بذات الروح المرحة الوثّابة الطاغية على شخصيته:

- بركاتك يا مولانا الشيخ.

هذا الطيف الروحاني الذي كان يحاول عمدًا إخفاءه منعه من الزلل، فلم ينحدر إلى الإثم كبعض أقرانه، بل إنه سعى سعيًا حثيثًا للعمل بعيدًا عن مواقع الفجور والخمور عندما التحق بالعمل بأحد الفنادق بعد تخرّجه من كلية السياحة.

عُرِضَت عليه فرصٌ كثيرة للعمل بفنادق شرم الشيخ والغردقة؛ حيث الدخل

الكبير الذي يؤمِّن له مستقبله، ويُيَسِّر له حياة رغدة، بل ويتيح له تعارفًا أوسع مع الأوروبيات، لكنه رفَض كل هذه الفرص؛ فقد رأى في عمله هناك سجنًا لا تطيقه روحه الوثَّابة، وآثر العمل بأحد الفنادق المتوسطة في كنَف أصدقائه وأهله.

سعى ربيع من خلال عمله بالاستقبال إلى عَقْد صداقات مع المتصابيات اللاتي كنَّ يفضلن زيارة الإسكندرية شتاءَ للفوز بفرصة للهجرة مع إحداهن، لكن لمرّات عديدة وبعد أن يرمي بشباكه تنتهي العلاقة بانتهاء رحلة السائحة.. مع وَعْدٍ باستمرار التواصل.. قال يومًا مشتكيًا من إحباط:

- أسبوع من الخروج والإنفاق، وتقول لي: ستعود في إجازة قادمة خلال شهور قليلة وسترتب الأمر، سمعتها مرارًا تكرارًا تلك الجملة، ثم تنتهي كما الفقاعات.

أتدري تلك الحمقاء أنجليكا عازفة الفرقة الإيطالية، أعلم أنها تهيم بي عشقًا لكنها لا تريد العودة إلى إيطاليا، إنها لا تمانع في الزواج؛ فقد عرضته صراحةً، ولكن ماذا أصنع بزوجة إيطالية لا تأخذ بيدي إلى بلادها؟

- أنت تعلم يا زيزو أنها سجينة ذكرى ماركو؛ حبيبها الرسام، الذي انتحر ضيقًا لعزوف الناس عن رسومه.

إنها تعيش هنا في الإسكندرية تحت سطوة مورجيني قائد الفرقة، والمرتزق السابق في شوارع روما.

إن رغبتها في الزواج بي ليس سوى هروب من ذكرى مريرة وسطوة باطشة، ولولا إصرارها على البقاء في الإسكندرية لما كانتْ فكرتْ للحظة في الارتباط بي.

* إنها فتاة رومانسية، وتختلف كثيرًا عن باقي أعضاء الفرقة، وتبدو جادة في ملاحقتك..

- إن مسألة الارتباط عندي ليست هدفًا، ولكنها وسيلة لحُلم الهروب من المعتقل الكبير الذي نحيا داخله..

قُل لي ماذا سأضيف لمسيرتي إذا ما تزوجتها، وبقيت هنا أحيا ذات الحياة اللاهثة التي يمارسها ملايين الشباب.

يا صديقي الفرصة لا تأتي إلا مرة واحدة، والمرء يصنع مستقبله في لحظة مصيرية

لا تتكرر، إما انطلاق يتبعه صعود، وإما سكون يتبعه هبوط، ولهذا لا تتقدم الغالبية العظمى من الناس؛ لأنهم يألفون السكون والاستقرار، لا طموح.. لا مغامرة.

كانت أسرة ربيع قد انتقلت إلى مدينة العامرية منذ خروج أبيه على المعاش مبكرًا بشركة العامرية للغزل والنسيج قبل عشر سنوات، وحصوله على مكافأة نهاية الخدمة؛ فاتفقت الأسرة على الحصول على إحدى شقق الإسكان الاجتماعي، والإقامة هناك؛ ليتمكن الأب من استثمار المكافأة في مشروع يُدِرّ دخلاً إضافيًا يساهم في تجهيز أختيه منال وهُدى اللتين ما تزالان بالدراسة الجامعية، لكنَّ ربيع يقضي إجازته في منزل جده القديم في الأنفوشي.. فعايش بؤس الحال الذي كان عليه الناس، فتكرست في نفسه حالة مستمرة من السخط والنقمة؛ لقبولهم ذُلّ العيش وقهر السلطة التي تستنزف خير البلاد.

ولم يكن يُعبّر عن آرائه بشكل علني على الفيس؛ لكثرة المتابعين له من رواد الفندق...

لكنه بعد ٢٥ يناير ٢٠١١م غمرته حماسة الثورة؛ فباتت صفحته تعجّ بالمنشورات المبشِّرة بعهد جديد يزول فيه الطغيان، وتعود البلاد لأهلها، ورغم ما تلا الثورة من نكبات ومآسٍ أثَّرت على الرواج السياحي بالمدينة إلا أنه لم يفقد الأمل أن تستمر المسيرة التي بدأها الشباب، حتى كان حراك الجيش في ٣ يوليو ٢٠١٣م، كان سعيدًا بالتحرك الذي أسماه تصويب المسار لكنه كان متوجسًا، ولم يصرح لأحد حتى تفجرت الدماء أنهارًا، فغلبته وحشة وكآبة والتزم الصمت، وعزف عن متابعة الأحداث وزهد في الكتابة على الفيس كما كان سابق عهده قبل ٢٠١١م.

في شتاء ٢٠١٤م كان ربيع قد وصل إلى أدنى معنوياته؛ فقد أدرك أخيرًا أنه على أعتاب الثلاثين، ولم يُنْجِز بعدُ شيئًا ولم يَعُدْ له في بلاده أملاً.

سارت أيامه نُسَخًا مكررة تنفرط من بين يديه كحبات المسبحة, في الصباح يمارس عمله اليومي بلا أدنى حيوية أو قبول، بل روتين حوّله إلى تُرس في آلة كبيرة تدور في العدم كآلاف الشباب.

وفي المساء يقضي أمسياته شاردًا في اللاشيء بين مَن تبقى من زملائه القدامى

الذين تفرقت بهم الأيام، بمقهاهم المعتاد يطالعون العبث الذي حلَّ بكل شيء.. الأفلام والأغاني التي تبثها شاشة التلفاز والتي تعجّ بالانفلات؛ انفلات من قِيم وتقاليد، حتى صارت البلطجة والفجور العنوان الأبرز لكلِّ المواد الفنية.

فإذا ما ضاق به المقام سار بين أزقة الأنفوشي لا يلوي على شيء، فقط يطالع الوجوه التي سيطرت عليها الوحشة من ضيق الحال وشظف العيش. وآمال وأحلام صارت مرتهنة لواقع لا يعبأ بهم..

ينتهي به الحال إلى شاشة اللابتوب داخل غرفته سجينًا بين أربعة جدران، يتنقل بين مواقع التواصل، والمواقع الإخبارية يتصفحها بملل ورتابة دون إبداء اهتمام بالأحداث الجارية، وحين يستفرغ طاقة التصفح والاطلاع غير المجدي.. يلجأ إلى مواقع الشات التي يحادث خلالها بعض الصداقات الوهمية.. يستمع ويتحدث مع البعض في اللاشيء استنزافًا لليل يُطبِق بظلامه على روحه..

في ذات الليلة برزت له كيللي.. اقتراح للصداقة على موقع الشات؛ سيدة عجوز لكنها تبدو بحُلَّة الشباب، كانت (أون لاين)، دخل إلى حسابها، تفاجأ بها ترسل له تحية، فرد تحيتها وهمّ بالخروج من حسابها، فإذا بها ترسل له رسالة صوتية تدعوه للحديث!

لم يجد مانعًا من تمضية دقائق معها، فهو معتاد على مثل هذه (الدردشات) العابرة، تعارَفا.. طبيبة من إنجلترا، كانت تتحدث بأريحية تامة بينما كان هو يستمع فقط ولا يرد إلا قليلاً، أرسلت بعض الصور لها في منزلها وعملها.

طلبت أن تكون الدردشة مرئية لكنه رفض.. متعللاً بأنه بين أسرته، وانتهت الدردشة سريعًا على اتفاق بتواصل مستمر.

ختمت حديثها بكلمة (بيبي) التي طرقت عقل ربيع، وتركت استفهامًا يتردد بين جنبات تفكيره.

في اليوم التالي لم تنتظر كيللي وُلُوجه إلى موقع الشات؛ إذ أرسلت له إشعاراً صوتيا تُلِحّ في المحادثة، وكان في طريقه إلى المقهى ليكمل عاداته اليومية.. فقرّر أن يُغَيِر وجهته إلى المنزل..

كانت إحدى عمّاته مع أبنائها في زيارة الجدة.. حياهم وسلّم سلاماً بارداً، ثم ولج إلى غرفته، وتناول جهاز اللابتوب وسارع إلى فتح الشات، هذه المرة دردشة مرئية، كانت المرأة في أبهى زينتها، لكن زينة مصطنعة، مبالَغ فيها.. فشلت في مداراة السن المتقدم.

- يا لك من شاب وسيم.
- شكراً للباقتك

وهكذا أدار ربيع الحوار بحيادية دون توغل كانت المرأة تسعى بإصرار لفرضه عليه.

طلبت منه أن يدوِّن رقم هاتفه ليتسنّى لها الاتصال به مباشرةً دون موقع الشات.

في اليوم التالي أرسلت رسالة صوتية على هاتفه عبر (الواتساب): اشتقت إليك كثيراً، وتلتها بـ (إيموشن) قُبلَة.

في المساء سقطت دفاعات ربيع وتحرّر الشات بينهما من الجمود، فراح يحكي تفاصيل يومه، ويجيب عن أسئلتها عن أموره الخاصة.

انقطع ربيع عن المقهى وصار يقضي ليله مع كيللي صوتًا وصورة.

ولم تمضِ أيام قليلة حتى عبّرت كيللي عن إعجابها بربيع وشعورِها بعاطفة تجاهه، وانساق ربيع إليها مدفوعًا بفراغ عاطفي وحالة من التيه النفسي.

وأدرك ربيع أن المرأة قد استبدَّ بها العشق، وأنها تريده، وأن فرصةً بين يديه سانحةً لتحقيق هدفه.. فتمادى معها في عاطفتها حتى تحقق له ما أراد.

إذ دعته لزيارتها ببلدها.. لكنه كان صريحًا ومباشراً أنه لا يستطيع الاقتران بها إلا تحت سقف الزواج.

لم تتردد كيللي وكأن الأمر كان متوقعًا، وكأن مسألة الزواج الرسمي لا تعني لها عقدًا اجتماعيًا لإنشاء كيان أسري يحظى بشروط الاستمرارية وقيود الارتباط بزوج.

سرعان ما أرسلت إلى ربيع تأشيرة الزيارة، وحجز تذكرة السفر.

ورتَّب أمره سريعًا وأبلغ أبويه وأختيه بزيارته لإنجلترا، ولم يهتم بالذهاب

لتوديعهم بالعامرية؛ خشية أن يحدث جدال حول الأمر.

غير أنه حرص على وداع صديقه الأوحد عبد العزيز –زيزو-:

- لم يعد لنا هنا مقام.

* تظن واهمًا أنك تنجو بنفسك لكنك تهرب إلى جحيم.

- وفِّر نصائحك لنفسك، كل شيء حولنا ينهار.

* وكيف نقاوم الانهيار إن هربنا جميعًا؟

عُد إلى رشدك يا ربيع لا يزال هناك أمل في فجر جديد.

- الفجر انتظرناه طويلاً، وعندما لاح وأدوه في مهده..

* أتظن عند كيللي سيبزغ لك فجر.. ستستنزف البقية الباقية من شبابك ثم تلقيك على قارعة الطريق، ذاك حال سابقيك، والفَطِن مَن تعلَّم من تجارب الآخرين.

* دعك عني، إن عُمري فانٍ هنا أو هناك، فلأقتنص لنفسي فرصة في هذي الحياة.. هل الشقاء قَدَر على الإنسان؟

في يوم سفره طاف ربيع طويلاً الأنفوشي، وجلس يتأمل البحر على شاطئ المنتزه، وذهب إلى الفندق يودِّع زملائه.

ومضى ليلته مع أصدقاء المقهى يستجمع الوجوه والمشاهد بذاكرته، ولم يكن بوداعه بالمطار سوى زيزو وأنجليكا التي فاجأته بقُبلَة دامعة لم يستطع دَرْأها.

# الربيع يتجدد كل عام

-٢-

كانت صفحته على الفيس هي النافذة الوحيدة التي أطل بها على مآلاته، وكان حريصًا على توثيق كل تفاعل له مع عالمه الجديد بأسكوتلندا.

يحكي عن الانعتاق الذي فاز به، والحياة التي تفتح له ذراعيها من جديد.

يكتب عن أحلامه التي بات الطريق إلى تحقيقها واضحًا ويسيرًا، كان يريد أن يرد على شامتيه بالإسراف في وصف خيالي لتجربته مع كيللي العجوز المتصابية.

بل إنه على حسابه بالانستجرام راح ينشر صورًا لحياته مع كيللي، وقد بدت أكثر حيوية ونضارة نتيجة لعمليات الإسبوتكس، هي في الواقع أقرب للمسخ منها للآدمية الكريمة.

ما لم أتوقعه أن يحافظ ربيع على خيط رفيع للتواصل بيننا، هو دائمًا في حاجة لمن يبوح إليه، أن يعرِّي ذاته أمامه، فرغم ما كان يُبديه من تماسك وقوة شخصية إلا أن بداخله كيانًا متصدِّعًا تصارعه الأهواء والهموم.

كتب لي رسالة فقيرة الكلمات

- شبحك يطاردني.

ولم ينتظر الرد، أغلق المسنجر، ثم عاد بعد أسابيع قليلة ليقوم بعمل ((منشن)) لي بمنشوراته التي يصف بها حياته الجديدة، يريد أن يثبت لي أنه لم يفشل، أو أنه حقق سعادته مع كيللي، فرددت برسالة صوتية:

- لا تنس ربيع الحسيني

فردَّ باندفاع:

- لماذا تصرّون على محاكمتي وكأني متّهم أذنب في حق نفسه؟

وأردف برسالة تالية:

- بل هي نيران أحقادكم؛ لأني انعتقت من كهوف عقولكم المظلمة بأفكارها البالية وأفقها المسدود الذي لا يتجاوز حدود الغد.

وتحررت من وطن حولته السلطة الغاشمة إلى سجن كبير ارتضيتم العيش فيه كالقطيع.

إنني هنا أولد من جديد.. بينما أنتم تحيون كساكني القبور.. خارج الوجود، أقصى أمانيكم أن تبقوا على قيد الحياة، ولو على الهامش كطفيليات الهواء والماء بلا قيمة وجودية.

واستمر ينهل من أيامه نهلاً، وكأن كنزًا من السعادة قد انفتح له، حتى غاب عنه قلقه تجاه الحياة والمستقبل، وحامت حوله ظُلل الأمان والاستقرار.

كتب يومًا:

- الحرية والمال والجمال بين يدي، تعسًا لك يا وطن الشقاء!

بدا النعيم ظاهرًا على ملامحه، والبسمة لا تفارق شفتيه في كل صوره.. لم يكن يعبأ بالمآلات، فقط يعيش ليومه.. فكأن شعورًا يتملكه بأنه يسير إلى النهاية، وأن ما بين يديه لن يُعوّض ولو عاش إلى الثمانين.

لم يكن راغبًا في استدعاء الماضي؛ إذ تمادى في قطع أيّ صلة به، وغرق في بحار العسل ففقد بصيرة الأيام، لم يتوقف لحظةً للوقوف على ما بدأه وتأمل تجربته وتوقع النهايات المحتملة.

لم يَعِ أن للأيام أحوالاً وتقلبات، وأن الراحة والرغد كما دلو الماء تغرف منه فينقص، وأن كيللي التي ارتضته يومًا شريكًا للفراش دون إيمان حقيقي بفكرة الزواج ومبدأ ديمومة العلاقة الزوجية التي يؤمن به البشر على اختلافهم.. ستُلقي به يومًا غير مأسوف عليه.

كيللي طبيبة تمتلك مشفىً خاصًا، ارتبطت في شبابها بعلاقة مع زميل دراسة، استمرت سنوات طويلة بعد التخرج.. غير أنه دون مقدمات وبلا سبب أنهى العلاقة من طرفه، ظلت كيللي بعدها بفترة بلا رفيق، عانت خلالها جرحًا عميقًا لتخلِّي صديقها المفاجئ عنها.

حتى حدث تحوّلٌ في علاقتها بعالم الرجال.. تحوّلٌ من تبادل العاطفة إلى رغبة سادية في الانتقام، فتعدَّدت علاقاتها، وكانت تنهيها بإيذاء الطرف الآخر.. فصارت

متعتها أن ترضي غريزتها بإيلام رفيقها.

لهذا لم تعرف للحياة الأسرية سبيلاً.. بل مضت حياتها في ملذات عابرة، تحت سقف نجاح عملي تُوِّجَ بامتلاكها مشفاها الخاص.

وشيئًا فشيئًا تطورت لذَّتها في إيذاء الرجال إلى استقطاب الشباب من خارج إنجلترا؛ إمعانًا في تحطيم مستقبلهم والإلقاء بهم في غياهب الضياع، وكانت مواقع الشات ساحة ممارستها؛ حيث شباب الشرق الأوسط الهائم على وجهه.. يتلقف أيّ فرصة لعبور البحر إلى القارة الأوروبية.

لم يكن ربيع أول الصيد.. فقد وقع في براثنها الكثير قبله ممن غررت بهم؛ إيهامًا بحياة جديدة ومستقبل باهر، ثم كان مصيرهم إما سجون الهاربين أو التشرد في حواري لندن.

لقد أغدقت على ربيع منذ وصوله إليها بلا حدود ودون مطالبة بثمن سوى الرضوخ انتظاراً لإشباع غريزتها الشاذة، منحته ما كان يحلم به حتى أدمن الترف والدعة.. ومن ثَّم انقلبت عليه، لذلك انتظرت حتى سقط في سَكْرة المتعة والسعادة التي عانى حرمانها طويلاً، فصارت تطالبه بما لا يطيق وبما يهين قَدْره ويَحطّ من إنسانيته.

وتولدت لديها كراهية للآخر بمعناه الديني والعرقي، أضافتها إلى عدائها لعالم الرجال، فصارت تمتهن الشرقيين أمام ربيع علانية وتسبّ معتقداتهم الدينية وتقاليدهم المحلية..

غير أن كيللي لم تترك العلاقة مع ربيع تصل إلى نقطة النهاية، بل كانت تتلذذ بتعذيبه حتى إذا تملك منه اليأس والهزيمة شملته بالودّ مرةً أخرى.. فكأنها تُحقنه جُرعة تَحمّل وصبر حتى تصل لمنتهى نزواتها منه.

ولأن ربيع عند كيللي كسابقيه نزوة مَرضية تسعى كل فترة لاقتناصها.. فلم تعبأ كثيرًا باستمرارية وجوده في حياتها إلا بقدر استطاعته إشباع رغباتها السادية من شبابه.. تلك الرغبات التي تجاوزت حدود الفطرة السوية.. ثم اقتنصت منه لحظة غاب فيها العقل والرشد..

وعندما أرادت معاودة الكَرّة كديدن طبيعي، انتبه ربيع في لحظة إدراك ووعي لما سقط فيه، واستيقظ على صدمة انتزعته من الجنَّة التي مكث بها شهوراً قليلة تُعَدَّ على الأصابع.

ولم تدعه كيللي نهبًا لتأنيب الضمير ومشاعر اليأس.. تمادت في الإغداق عليه من الملذات وسبل السعادة مرةً أخرى، بَيْدَ أنه أدرك أنها تضعه بين خيارين؛ إما الاستمرار بجنتها الفاسدة، وإما الهبوط إلى حيث أتى.

وللمرة الأولى منذ افتراقنا يأتيني صوته باكيًا بلا تحفُّظ، منكسرًا بلا كبريائه المعهود.. باحثًا عن مرفأ أمان..

تلوتُ: {**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** }[الزمر: ٥٣].

فقال: إنه لن يعود إلى نقطة الصفر مهما كان مصيره.

بعد أيام أرسل يخبرني بهروبه من كيللي، وأنه صار مشرّدًا في بلاد الضباب.. لا صديق ولا مأوى له.

وانقطعت الصلات بيننا لفترة، عبثًا حاولتُ أن أجد له طرقًا.. حتى أتتني منهُ رسالة إلكترونية طويلة:

صديقي الغالي عبد العزيز.. زيزو

أعتذر لك من كل قلبي لعدم الرد على رسائلك طيلة الشهور الماضية، أدرك قلقك العظيم على حالي بعد أن فررت من كيللي.. فقد كنت أصارع نفسي المهزومة البائسة، وأقاسي عبأ سنوات المرارة والقهر.

الآن يا صديقي وقد هدأت روحي ولملمت أشتات حالي.. أستطيع أن أسرد عليك ما آل إليه أمري..

يوم أن خرجتُ من حياة كيللي لم يكن بذهني أدنى فكرة عن مصيري في هذه البلاد الغريبة، غير أني راسلت صديقًا تعرفت عليه بأحد جروبات الجالية المصرية هنا في لندن، وكان يُبدي وُدًّا لي.. دعاني هذا الصديق لمشاركته مسكنه، فذهبتُ إليه ومكثت معه عدة أيام.

كان هذا الشخص منقطعًا بشكل غريب مثلي عن التعامل مع المصريين، وقد أوعز ذلك لانعكاس الخلافات السياسية في مصر على العلاقات البينية هنا، وإصرارنا كمصريين على استدعاء انقساماتنا أينما حللنا.

الحق يا زيزو أن هذا الشخص كان طوق نجاة لي من الضياع والتشرد، وقد احتواني كما الأخ، بل إنه لم يُلِحّ في معرفة تفاصيل أزمتي، وقال: إن المصريين في كل مكان يتعرضون لنفس الظروف..

كنت قد تعرفت على صديق إنجليزي عبر علاقات كيللي الواسعة، توطدت بيننا العلاقة، وصرنا على اتصال مباشر..

تفاجأت به يصل بي هاتفيًا.. وقد علم ما صار بيني وبين كيللي. لسببٍ ما حكاه لي فيما بعد كان هذا الرجل يريد مساعدتي..

لن تصدق يا زيزو: هو الذي نبّهني من قبل للحذر من كيللي، وقال: إن عليّ تدبر أمري قبل أن تصل علاقتنا سويًا إلى نقطة الانفصال الحتمي.

عرض عليّ هذا الرجل العمل معه بشركته الصناعية الصغيرة..

كانت سقطةً كبيرةً عدم الحصول على الجنسية فور اقتراني بكيللي.. كي أتحرك بأمان وسهولة، كانت كيللي تدرك هذا الأمر جيدًا. وكانت تعلم أنه لا مأوى لي سوى عند صديقنا المشترك، فبدأت في إثارة المشاكل لي.

في البدء أبلغت الشرطة بهروبي.. وهو إجراء احترازي يحميها.. ومع ذلك كان يمكنها أن تكتفي بهذه الخطوة، لكنها بعد أن أنهت الزواج رسميًا تقدمت إلى الشرطة بعقد جزائي كنت وقّعته لها قُبيل إتمام عقد الزواج، مطالبة إياي بسداد مبلغ ٥٠ ألف يورو تغريمًا لفسخ عقد الزواج من طرف واحد..

نعم أكاد أسمعك تلومني على توقيعي على هذا الشرط، رجاءَ يا زيزو كفى قسوة وجلدًا فقد بُليت بما فيه الكفاية.. كان لدي استعداد للتضحية بروحي في سبيل نيل فرصة طال انتظاري لها سنوات.

وكما نقول في بلادنا كانت (السكينة سرقاني)، وتُعمي عيني عن رؤية مآلات ما أنا مُقدم عليه.

المهم أنني بين عشية وضحاها صرتُ مطلوبًا للشرطة، في حكم الهارب ونحن في أوروبا يا زيزو حيث القانون والسلطة هنا لا تجامل ولا تعترف إلا بقرائن ملموسة مهما كانت عدالة قضيتك.

كان صديقي الإنجليزي يتابع أمري خطوة بخطوة، وقد تطوع بالتفاوض مع كيللي لحسم المشكلة.. بعد جولات من التفاوض والمساومة لم أكن طرفًا فيها وصل معها لأن تقبل بمبلغ ١٠ آلاف يورو سيقوم هو بسداده نيابة عني.. وهكذا انتقلت من أسر زواج غير متكافئ إلى دَيْن يُغِلّ عنقي.

كانت رسالته لصديقه زيزو جرعة ثقة حاول بها ربيع تثبيت إيمانه بقدرته على تجاوز الفشل.. سعى إلى استمدادها من خلال صديقه الوحيد الذي يقف أمامه عاريًا من دون تزين أو تكلف، كان انعتاقه من كيللي بسلام واستقراره بعمل يملآنه نشوةً وشعورًا بالانتصار، ومن غير عبد العزيز في عالمه المحدود الذي يمنحه هذا الشعور؟

هو يعلم أن زيزو لن ينشر له سياط الجلد ولن يمارس ضده دور الوصي والرقيب.. بل سيظل ضميره الحي كحاله دائمًا، لذلك فلم يتحرج من أن يبوح له بأمر ذلك الرجل -دان- الذي مدَّ له يد المساعدة في أحلك ظروف مرّ بها منذ اقترانه بالطبيبة العجوز -الفاسدة- كيللي؛ ليكتشف بعد أن التحق معه بالعمل بمصنعه الصغير بريف يورك شاير أنه يهودي ملحد من أصول مشرقية..

في البدء لم تسنح الفرصة لأن يعرف بهذا الأمر؛ إذ كانت لقاءاتهما عابرة وفي وجود كيللي التي كانت تحجبه عن العالم خارج إطارها.. بَيْدَ أن الرجل -دان- كان ودودًا وصادقًا مع ربيع؛ رأفةً لما لمسه من معاناته المحدقة مع كيللي، ومن هنا كانت الصداقة الغريبة بين شاب في بدايات عقده الرابع وكهل يتجاوز الستين.

ظل ربيع في كنف دان لم يشغله أمر ديانته اليهودية؛ إذ كان هذا الأخير مؤمنًا بالمذهب الإنساني الذي يتجاوز كل الفوارق بين البشر ليُعْلِي قيم الإنسان كونه إنسانًا مجردًا من الدين واللون والعرق، فلا عجب أن معظم من يعملون بمصنعه من الباكستان والبنغال وعرب المغرب والجزائر، وبهذا الفكر انتفت حساسيات

الصراع العربي الصهيوني من علاقة ربيع ودان، ساعد على ذلك أن ربيع لم يكن يُلْقِ بالاً للاعتبارات السياسية والدينية بحكم عمله السابق بالسياحة، وتعامله المباشر مع الكثير من الأوروبيين.

بل إنه كشَابَ وُلِدَ في الثمانينيات بعد أن وضعت الحرب أوزارها، وفُتحت أبواب القاهرة للتطبيع على مصراعيها لم يكن ليهتم بالعداء التاريخي وفكرة استلاب الأرض العربية، وتشريد الفلسطينيين خارج بلادهم، وحصار أبناء غزة الدائم، حسَم ربيع أمره بشأن دان؛ إذ اعتبره يهوديًا ملحدًا لا يَمُتّ للصهيونية بصلة، وهكذا صارت هذه العلاقة على وتيرتها مترفعةً عن صراعات الشرق الأوسط.

وأما دان فقد رأى في ربيع روحًا تجاهد لاقتناص حقها في الحياة، لكنها تتصادم مع معطيات الواقع الذي تسير في سياقه.

عاش دان طفولته في مدينة طنجة بالمغرب، ثم نزح مع أسرته إلى مصر، وهناك قضى سنوات قليلة من صباه قبل أن تضطر الأسرة إلى الهجرة مرة أخرى، اختارت الأم والأب إسرائيل، بينما كان بوسعه أن يختار الرحيل إلى خاله بإنجلترا بناءَ على نصيحة الأب ذاته؛ خوفًا على مستقبله من بلد منبوذ يصارع كل جيرانه.

وجد دان في ربيع خيطًا رفيعًا يربطه بماضيه الطفولي وحنينه إلى بلاد تربّى على أرضها وبين أهلها المسالمين. وهكذا شاءت الأقدار أن يَمُدّ له يد المساعدة وأن ينقذه من براثن العجوز المتصابية كيللي..

سأله ربيع:

- متى كانت آخر زياراتك لمصر؟

* قبل ثلاثة أعوام

- شهدت أجواء الثورة إذًا؟

* نعم وزرت ميدان التحرير أثناء إحدى التظاهرات الحاشدة.

- هل راقت لك الثورة المصرية سيد دان؟

* أنا مؤيد لكل حراك إنساني ينادي بالحرية والعدالة والمساواة..

إنني مشارك دائم في كل تظاهرة احتجاجية ضد العدوان على غزة.. دائمًا ما

يكون معنا عددٌ من الحاخامات.. لتعلم يا ربيع أن الصهيونية لا تُمثِّلنا.

- الثورة في مصر تم قتلها، وقُتلت معها كل آمال جيلنا.

* أنتم للأسف شعوب مستكينة لطول ما مُورِسَ عليكم من استبداد وقَهْر منذ أجدادكم الفراعنة.

- ليس الأمر كذلك سيد دان، لقد انتفض الشعب في ثورة ناجحة تمامًا، لكنَّ القُوَى الإقليمية والدولية لا تريد لبلادنا التحرّر، فعُدْنَا إلى حكام الوكالة والتبعية، وكأن ثورة ما قامت.

* لكنكم ملتم إلى الأصوليين وهؤلاء كانوا يقودونَكم إلى الهاوية.

- أراك تكفر الآن بديمقراطيتكم ونتاجها سيد دان!!

* لولا تدخل الجيش لكانت ديمقراطيتكم قد انتهت صالح حكم ثيوقراطي!!

- لولا عودة الجيش لسُدَّة الحكم مرة أخرى ما كان هذا حالي..

قضى ربيع عدة شهور في كنف دان، ورغم ما أتحفه به من رعاية وعمل إلا أن ربيع ظلل يشعر بأنه أسير كَرَم الرجل، كما أنه بعد أن طال به المقام وجد أنه لا يحرك ساكنًا من أمره كونه يعمل موظفًا بسيطًا بمصنع صغير، لذلك انتهز فرصة انتهائه من سداد دينه لدى دان، وفاتحه في رغبته في وُلُوج العمل الحُرّ، ولم يكن يعلم ربيع أن الرجل يَدَّخر له مفاجأةً تسره، مفاجأة تنقله من بلاد الضباب —لندن - إلى بلاد النور؛ باريس.

من منا لم تلتصق بذاكرته رائحة الأمكنة، وترسبت في وعيه صور ما لشوارع أذبناها سعيًا في ترحالنا المستمر.. في اغترابه تفجّر الحنين ربما لأول مرة داخل ربيع لأزقة الأنفوشي التي أمضى فيها الأمسيات مع صحبة الطفولة، إلى مقاهي سيدي بشر مع زملاء العمل.

وهل ينسى بيت جده العتيق الذي احتواه في الليالي الشتوية الممطرة عندما تُلِحّ عليه هواجس المواجهة مع الذات وتتقاذفه أمواج الأسئلة الوجودية..

هنا في باريس أعاد ربيع اكتشاف انتمائه للشارع الذي يحتوي البيت وإلى المدرسة الثانوية التي لطالما كان ينفر من الذهاب إليها، وإلى الشوارع والأزقة رغم

قبحها وضيق أنفاس أهلها، إنه يتمنى لو عاد الزمان به ليتجول لمنتصف الليل وسط زحام الباعة الجائلين والموتوسيكلات ودخان طهي الكبدة التي كان يتأفف منها في الماضي، يتمنى لو عاد به الزمان ليجلس مع أبيه في شرفة المنزل ساعة العصاري يشاهد البقال ينثر الماء على الطريق بالخرطوم ليهدأ الغبار، للمرة الأولى يكتشف مذاقًا خاصًا لإصرار أخيه الأكبر على مرافقته إلى المسجد الكبير لصلاة التراويح في رمضان، رغم أنه كان يداوم على صلاتها بالمنزل مع أخته. الآن فقط يدرك أن الأمومة ليست فقط متابعة الاتصال للسؤال عنها وطمأنتها على حال لا تدري عنه شيئًا..

تذكر ربيع كل ذلك وهو يطوي خطواته بشارع الشانزلزيه بعد ساعات قليلة من وصوله إلى باريس.

لم تكن لندن باعثه على ذاك الحنين؛ لا لأنه كان محاصرًا داخل أسوار كيللي ولا لانغماسه في العمل الدؤوب لدى دان، ولكن لأن لندن مدينة تشبه المرأة العجوز التي تتأهب لمغادرة الحياة.. إنها مدينة تعيش في عمق العصور الوسطى تكاد تخلو من حيوية الشباب، قالها يومًا لدان.. إن هذه المدينة تصلح بجدارة لأن تكون دار مسنين مفتوحة، إنها تشبه كيللي إلى حدٍّ بعيد في كهولتها وعربدتها وغروب بريق الحياة عنها، وكأن كلاهما يدفع ثمن ما اقترفه من آثام وأوزار.. لندن امرأة تجلس على قارعة الطريق تتشح بالسواد تتحسر على عمر ومجد ضاع تمدّ يدها للعابرين.

أما باريس تلك الشابّة الجموح فقادرة على تجاوز آثامها والانطلاق باستمرار في عربدتها ومجونها وعشقها للحياة، وقهرها لآثار العمر وتجاعيده، كل شيء ينطلق بقوة في باريس، الحياة تبدو في أبهى صورها، لا مجال هنا للسكون أو الارتداد للخلف؛ إنها فتاة مارقة لا تترك دربًا لنزواتها إلا سلكته فهي تتجرع الحياة ليلاً ونهارًا حتى الثمالة، هكذا بدأ يكتشف ربيع باريس، وربما بنى انطباعاته السريعة على ما ألفَه من ثقافة المشرقيين حول المدينة، لكنه سيعيد ترتيب هذه الانطباعات بعد لقائه سيمون ابنة دان باحثة العلوم الإنسانية بجامعة باريس.

في مساء يومه الثاني بباريس جاءه اتصال هاتفي كان ينتظره منذ أن حطت

الطائرة بمطار اورلي، إنها سيمون ابنة دان.

كان ربيع قد نام طويلاً بعدما أجهده السير بشارع الشانزليزيه؛ إذ كان تواقًا لاكتشاف محطة إقامته الجديدة، أقام ليلته بفندق رتبت سيمون حجزه لحين تجهيز سكن دائم، طالع أضواء الهاتف وهو يهتز برقم سيمون، نفض الكسل عن جفونه، واعتدل في مرقده وتناول الهاتف..

جاءه صوت رقيق ينطق التحية الإسلاميّة بلغة عربية سليمة، رد السلام متهيبًا عالم جديد بدأت بوادره تتفتح أمامه.

قالت: إنها ستمر عليه بعد نصف ساعة كي يتعارفا ويتناولا العشاء سويًا.

وضع ربيع الهاتف وانتفض مسرعًا إلى الحمام، وفي دقائق معدودة كان قد ارتدى ملابسه، وتهيأ للنزول، ورغم أنه لا يزال أمامه سعة من الوقت قبل ميعاد سيمون إلا أنه فضَّل أن ينتظرها باللوبي بار.

هو يعلم التزام الأوروبيين الشديد بالمواعيد، لكن ثمة توترًا بدأ يتسلل إليه لما هو مقدم عليه، إن دان وضع كل ثقته فيه هو، ها هو يسلمه وكالة أعماله بباريس لكي تتفرغ ابنته لأبحاثها الأكاديمية، وحسبما علم من دان فسيمون شابة صغيرة لم تتجاوز الثامنة والعشرين بعدُ، فأيّ فتاة هذه التي تمكنت بحداثة سنّها من إدارة أعمال أبيها إلى جانب طموحها الدراسي؟!

تلك الهواجس دارت بعقله وهو ينتظر الفتاة محاولاً التغلب على توتره الذي سيكتشف فيما بعد أنه ليس بسبب ضخامة مسئولية العمل الذي ينتظره، ولكن بسبب أن سيمون ليست ككل مَن عرفهن من قبل؛ إنه أمام فتاة تمكَّنت من غزو ذاته قبل أن يراها رأي العين، وتمكنت من بثّ رهبة بداخله من مواجهتها.

استيقظ من شروده على صوتها تهتف باسمه.. أستاذ ربيع.

ارتجفت أوصاله للوهلة الأولى وهو يرفع بصره إلى وجهها المضيء، مشرئب بحمرة خفيفة، وبسمة واسعة تزين شفتاها، تكاد تضحك بها عينيها.. سيمون!!.. ابنة دان!! ترتدي حجابًا إسلاميًا.. يا لها من مفاجأة.. لا يكاد يبين من جسدها غير ذات الوجه المشع بهاءً ونورًا..

لم ينتبه ربيع إلى إدامته النظر إليها مشدوهًا دون أن يبادلها حرفًا ولم يخرجه من غيبوبته إلا يدها تهتز أمامه، مدَّ يده، وتلاقت اليدان تحيةً لكنه سرعان ما سحبها خجلاً..

جلست قبالته سألته إن كان راغبًا في الذهاب لمكان آخر؟ فأجابها مندفعًا بفرنسيته الساذجة ((وي.. وي)).

اعتدلت في مقعدها مقهقهة، فأدرك أنه رد بالفرنسية بينما كل حديثها باللسان العربي.. هنا شعر بانفلات زمام الأمر من يده، عليه أن يدارك شأنه بأسرع وقت وإلا افتضح تهافته وتداعيه أمامها. فهتف مستعيدًا رباطة جأشه.. هيا بنا.

سارت أمامه واثقة وقد كسا هيئتها وقار غريب، اندفعت إلى السيارة خلف المقود، جلس إلى جوارها، لا يزال الصمت يلجم لسانه.. يخشى أن يبادر بالحديث فيندفع دون تحسّب أو روية.

مال بلحظه إليها كانت تنظر إلى الطريق وذات البسمة العريضة لا تفارق شفتيها تغشاها سكينة تدغدغ توازنه.. ليتها تتكلم لتداري تداعيه، بل يجدر أن يبدأ هو بالتعارف:

- اسمي ربيع، ينادونني روبيه.

دون التفات أجابته بهدوء متزن:

* جيد.

ولم تعقب..

ربيع على خبرته الطويلة في العمل بين الناس، نسي أنه يخاطب فتاة أوروبية أولاً وسيدة أعمال ثانيًا، وباحثة أكاديمية ثالثًا.. إذًا فهو أمام كيان إنساني محاط بقوالب صلبة وليس كفتيات الشرق الهائمات، لذلك فقد أدرك أنه قد يخسر الكثير من رصيده إذا ما بادَر بمحاولة اقتحام هذا الكيان بدون فهم واستيعاب لمكوناته مقدمًا، فحسم أمره أن يترك لها إذابة حائط الجليد بنفسها.. مضت دقائق قليلة، ولكنها ثقيلة ثقل الصمت الذي ران عليهما.

أمام أحد المطاعم المطلة على نهر السين سكنت السيارة، حملت حقيبتها

وخرجت دون أن تنطق بحرف، فتبعها وقد بدأ يشعر بالتضاؤل أمام الفتاة، كان يسير كما الطفل خلف أمه.. صعدت إلى الطابق الثاني المشرف على النهر، في أحد الزوايا النائية اختارت أن تجلس، يبدو من حركتها الرتيبة أن المكان مألوف لها..

كانت وجهته إلى الزاوية بينما تشرف هي على فراغ المطعم، رفعت رأسها تجوس بناظريها في المكان بينما هبط بعينيه إلى الطاولة كي لا يصطدم بنظرها، بدأ يشعر بالحنق عليها، جاء النادل، بادرته بالسلام وحيّته بودّ.

تناولا العشاء في صمت ثقيل، غالب خلاله حنقه على تلك الفتاة الصامتة.. وما منعه من مواجهتها سوى إدراكه المبكر لطبيعة شخصيتها متعددة الأطُر.. غير أن أكثر ما عقد لسانه عن الحديث هو وقار حجابها الذي كان أبعد ما كان يتوقعه..

كانت تنظر عبر الزجاج بعمق للنهر المتلألئ تحت أنوار باريس الساهرة.. همّ في لحظة خاطفة أن يكسر حاجز الصمت بأن يسألها عن قصتها مع الحجاب، غير أنه تفاجأ بصوتها يتسلل بهدوء شديد كأنه سيمفونية كلاسيكية.. ظللت عيناها شاخصتين إلى النهر وكأنها تناجي أحدًا يتراءى أمامها.. لم أستطع تبين مفردات مناجاتها الذاتية.. ولم يجد في نفسه الشجاعة الكافية لسؤالها عن فحوى ما تقوله.. ظن للوهلة أنها تردد ترنيمة قديمة، حتى علا صوتها بشكل مفاجئ بكلام عربي سليم..

كيف كان يومك الأول بباريس؟

ما هذا!! هل تسأله بعد هذا الغموض الذي أحاط بها لدقائق عن يومه الأول بباريس. أهي فتاة غريبة الأطوار؟

هزّ ربيع رأسه ثناءً على الفندق..

باريس حلم كل العشاق.. وأمل كل الأحرار.

انفرجت شفتاها عن ابتسامة حكيمة، وللمرة الأولى يتلاقى بصرهما بشكل متصل.

غدًا يبدأ عملك بالشركة -بإذن الله-، سأكون بانتظارك كي أعرّفك بالموظفين وأسلمك ملفات العمل.

نحن شركة طموحة، ولقد وضع السيد دان ثقةً كبيرةً في القفز بالشركة إلى

المنافسة العالمية.

وأنا بدوري أثق في قدرات العرب القيادية والإدارية، خاصّة مع أخلاقهم الشرقية ورقيهم الديني.

مدَّت يدها إلى حقيبتها أخرجت منها مفاتيح لسيارة، ناولتها لربيع:

ستجد السيارة عند الفندق، وبها بعض الهدايا لك.

ثم استقامت..

نلتقي غدًا إن شاء الله، هيا كي أعيدك للفندق.

للمرة الثانية يجد ربيع نفسه يسير خلفها صامتًا، عاجزًا على اختراق حواجز هذه الفتاة.

عندما ركبا السيارة بدَر لذهنه أن يسألها عن علاقتها بدان.. لماذا قالت السيد دان عندما تكلمت بالمطعم قبل قليل؟

دان أبي بالتأكيد، ولم ألْقبه بالسيد في حديثي إلا توقيرًا له في مقام العمل.

- ولماذا أنتما منفصلان؟

تجهَّم وجهها قليلاً دون أن تنقل نظرها عن الطريق.

أحس ربيع أنه أخطأ بسؤاله المتسرع، غير أنها بادرته بالإجابة..

توفيت أمي منذ خمس سنوات، بالمناسبة لم تكن يهودية، بل كاثوليكية، واخترت أن أعيش منفردةً بعد وفاتها، وظلت علاقتي بأبي مستمرة يقويها مواظبتي على العمل بالشركة.. حتى قرّر أن يعود إلى لندن تاركًا لي إدارة الأمور هنا بنفسي..

وصلا الفندق حيّته بوُدّ وامتنان..

تفقد السيارة وحمل الهدايا التي كانت بعض الملابس والعطور الباريسية الفخمة.

توطدت علاقة ربيع بعالمه الباريسي، واستطاع احتواء عمله سريعًا، ونجح في رسم مسار وخطة يسير عليها.. استجمع كل مهاراته التي حصّلها خلال سنواته العملية القليلة، كان وقود طموح كبير للنجاح؛ فالفرصة سانحة بين يديه ولا ضغوط اجتماعية أو نفسية ترهقه وتشغل باله، فقد ألقى كل ماضيه خلف ظهره، لا يلتفت

إلى مصر وما حلَّ بها ولا إلى تجربته القاسية مع كيللي.

حافَظ على تواصل مستمر مع دان، يستشيره في أدقّ تفاصيل العمل، فتمكن من اكتساب مهارات إدارية وقدرات تفاوضية وموهبة تحليل السوق وسلوك المنافسين.

وبات قادراً على إنجاز خطوات للأمام، فبدأ في عقد صفقات جديدة داخل فرنسا وتعدَّدت أسفاره في أرجاء أوروبا لفتح المزيد من الأسواق، وخلال أسابيع قليلة نجح في كسب عملاء بألمانيا وبلجيكا وإسبانيا، كان لها أثرٌ في زيادة الطلب على منتجات الوكالة، وصار ربيع اسمًا بارزًا يتردد في مجال تصدير الملابس.. تُوِّج هذا النجاح بعقد صفقة ضخمة مع إحدى الشركات الكبرى بأمريكا.. الأمر الذي استتبع التوسع في القدرات الإنتاجية للمصنع، وتشغيل عمالة جديدة، وإضافة خطوط إنتاج أخرى.

من بعيد؛ كان هناك مَن يرقب نجاحه بعين الحقد والغيرة.. إنه جوزيف ذلك الرجل الصربي الذي كان يومًا صاحب الأمر والنهي في الوكالة بعد دان.. بين عشية وضحاها استيقظ على ربيع وقد سلبه المكانة والحظوة لدى دان، وصار صاحب الكلمة الأولى في تسيير وإدارة الوكالة، لهذا كان جوزيف يترقب لحظة ما ليغدر بربيع كي يستعيد سلطته البائدة..

كان ربيع يقف أمام نافذة مكتبه المطل من بناية قديمة على شارع ووترلو، يَنتشيه إحساس عارم بالحماس.. مزهوّا بما حقَّقه، تشمله حالة رضا عن حاله.

لكن علاقته بسيمون كانت المعضلة الوحيدة التي لم يستطع حَسْمها، فقد وجد الفتاة جادة وعملية ما جعله يردع أفكاره ومشاعره المتضاربة تجاهها، وأمام تداعي مسؤوليات عمله ورغبته المحمومة في إثبات ذاته وإشباع طموحه إلى النجاح، بالإضافة إلى رغبته في تأكيد جدارته أمام دان.. لذلك فقد بادل الفتاة نفس الحيادية وبقيت العلاقة بينهما متسمة بالجمود حتى انقطعت بشكل كامل بعد اطمئنانها لقدرته على تحمّل مسئولية العمل.

لكنَّ ربيع المنغمس حتى النخاع في أعماله وأسفاره لم يكن ليستطيع إزاحة طيف الفتاه عن خاطره، إنها المرة الأولى التي يخفق فيها قلبه بعاطفة، وهو الذي ظل طيلة شبابه لا يرى في الأنثى إلا مجرد مخلوق يشارك الرجل الحياة على الكرة

الأرضية، كان خلال سنواته الماضية مسيطرًا على مشاعره، يضع حاجزًا صلبًا أمام أي أنثى تخترق عالمه الرجولي.

أمام النافذة كانت تتأجج عواطفه وتتصارع خواطره، هل حضورها المستمر في خاطره يعني عشقه لها؟ إن صورتها لا تفارق خياله أبدًا، ولا زالت أجواء اللقاء الأول بها هي نقطة ضعف مساره الجديد.

الآن ماذا يريد منها، إنها غارقة في أبحاثها لا تعبأ به، بل لعلها قد نسيت اسمه تمامًا، فما هو إلا أحد العاملين بشركة أبيها مهما تعالت نجاحاته.. التمس ربيع أعذارًا لها؛ فالفتاة تعشق دراستها، وتمضي أغلب وقتها في تصفُّح المراجع وزيارة المكتبات، وحضور المنتديات والمؤتمرات العلمية. يقينًا هي لا تنظر إليه تلك النظرة الطبقية أو العنصرية التي رسخت بداخله منذ اللقاء الأول على نهر السين والذي لم يسعفه ليلج إلى خواص عالمها.. لكنها باحثة أكاديمية وهذا مفتاح شخصيتها الأول، ولذلك قد يتفهم المرء نظرتها الفوقية المتعالية إلى العلاقات العابرة وإفرازات الحياة العملية.

اطمأن ربيع إلى هذا التبرير المُرضي، فعاد إلى مقعده خلف مكتبه وراح يتصفح خطة عمله التي رسمها ووضع لها خطوات تفصيلية، رفع سماعة الهاتف الداخلي يستدعي السكرتيرة.. بعد لحظات مثلت أمامه:

* أريدك يا فطيمة ترتيب اجتماع لكل مندوبي الوكالة، اتصلي بمندوبينا الجدد في ألمانيا وإسبانيا، أريدهم هنا غدًا على وجه السرعة.

بينما تجلس الفتاة أمامه تُدوِّن ما يطلب انتبه إلى علاقتها الوطيدة بسيمون؛ إذ إنها كانت ذراعها الأيمن في إدارة شئون الوكالة، لماذا لا يستميلها إذًا ليلج إلى عالم سيمون المستحكم عليه؟

* أنت سكرتيرة نَشِيطة يا فطيمة، يسعدني تفانيك بالعمل وحماسك المتقد، لقد أصابت د. سيمون بمنحك الثقة.

جفلت الفتاة عينيها خجلاً من الإطراء المفاجئ: أنا وسيمون أصدقاء منذ سنوات، بالمناسبة هي لا تفضِّل الألقاب.

* هل جمعتكما الدراسة؟

- بل جمعنا المركز الإسلامي، كانت ولا تزال تتردد عليه للاطلاع على الإسلام.

لم يُرد ربيع أن يضيع الفرصة من يديه، فبادر دون روية بسؤالها مباشرة:

* وهل ترتبط سيمون بعلاقة مع شخص ما؟

بدت علامات الاندهاش على وجه فطيمة، ليس لجرأة السؤال ومباشرته، وإنما لما يكتنفه من جهل فهتفت باستغراب:

* أو لا تعلم؟!

- أعلم ماذا؟

* سيمون أرملة.

حطت الوجوم على وجه ربيع، وشلَّ الخبر لسانه، فانعقدت الحروف على شفتيه. ومرّت لحظات وهو يحدق في عيني فطيمة غير مستوعب لما قالته.. هل ما سمعه هو ما نطقت به فعلاً، أم أنه أساء السمع فساء الفهم؟ كيف هذا! إنه بكامل وعيه وليس شارداً، والفتاة أمامه تدقق النظر إليه غير متفهمة ما أصابه.

ولم تجد الفتاة ردًّا فهتفت مستأذنة، تاركةً ربيع يقلب كلماتها على مسامعه مرة أخرى.

لم أُمرّ يا زيزو بهذا الضعف يومًا في حياتي، وكيف أضعف وأنا أقيم جدراً صلبة البنيان حول ذاتي تمنع أيّ اختراق يزعزع استقراري النفسي، حتى زواجي الفاشل من كيللي لم ينل من عزيمتي.. غير أن وقع كلمات السكرتيرة فطيمة على نفسي كان عنيفًا لم أحسب له حساباً، لحظة أن أطلقت الخبر القنبلة على مسامعي شعرت بالأرض تميد من تحتي.. فقدت توازني، وظللت لساعات لا أتمالك قدرتي على التفكير، عجزت عن تجاوز الكلمات التي ظللت تطنّ في وعيي كَسِهام راشقة في الصدر.

- سيمون أرملة؟

يا لَعجب هذه الدنيا!

هذه الفتاة تبدد كل قناعاتي السابقة، فتاة أوروبية من أصول يهودية تعتنق الإسلام، وتتزوج وتترمل في هذا السن المبكر، إنها قصة تختلف كليًا عما أَلِفْته من

قصص السينما.

وجدتني يا زيزو أستقل سيارتي وأتوجه إلى ملتقانا الأول بذات المطعم التركي، جلست على ذات الطاولة مذبذب البال.. لا يدور بخاطري سوى هاجس واحد أن أقتحم هذه الفتاة.. مهما كانت العواقب، فرفعت هاتفي متصلاً بها، كنت متلهفًا كعاشق تغمره مشاعر الوجد لأول مرة، تعتريني حماسة لأن أبوح بما يضنّ في صدري تجاهها، لكن كيف وهي لازالت ملتاعة بمشاعر الفقد والترمل المبكر، لم أعر هذا التوجس اعتباراً، كان الاندفاع يعمي عقلي عن أيّ ترتيب مسبق.. حتى جاءني صوتها الرصين الذي لا تستطيع تحديد ملمح له، سوى الحيادية التامة.

وبلهجة آمرة قلت لها: إنني سأنتظرها بذات المطعم الذي التقينا به أول مرة.

حاولتْ فَهْم داعي اللقاء وسبب العجلة، لم أعطها إجابة شافية، فقط أنتظرك وستعرفين حين نلتقي.

واجتمعنا يا زيزو، ليس كسابق لقاءاتنا التي سيطرت عليها روح العمل.. فقط العمل. في ذات المكان وذات الطاولة..

ظللت شارداً أحاول إيجاد مدخل مناسب لا يثير خجلي ولا يفضح صبابتي.. وجدتني أديم النظر إلى عينيها أستقرئ ما يدور بخلدها، حتى قالت باسمة:

*خيراً، كأنك تراني لأول مرة

لم أرد بل تماديت في الغوص داخل بسمتها الساحرة، فأعادت السؤال وقد كَسَتْه بدهشة:

* ما الذي استدعى لقاءنا على وجه السرعة؟

وكما العادة تجاوزت حدود التكلف واندفعت ملقياً بسؤالي:

- سيمون.. لِمَ لَمْ تخبريني أنك أرملة؟

فردت دون تفكير ودون أن تتخلى عن رصانتها

* وهل أموري الخاصة ذات علاقة بعملك؟

اختتمت ردّها مشمولاً بنظرة حادة.

فتمالكتُ كل طاقاتي على التحمل والمواجهة.

- كان يجدر بك أن تخبريني عن تفاصيل حياتك.

* ماذا تقول؟! أراك تتجاوز.

- سيمون أنت بالنسبة لي أكثر بكثير من كونك ابنة السيد دان.

* يكفي هذا، عُدْ لرشدك.. سأعتبر هذا الموقف كأن لم يكن.

ثم غادرتْ المكان دون وداع.

آه يا زيزو كنت لحظتها أفكر في إلقاء نفسي من شرفة المطعم، أو أن أغمد سكين الطعام بصدري.. وجدتني أستقل السيارة أجوب شوارع باريس الباردة لا ألوي على شيء حتى انتهى بي المقام بساحة الكونكورد، فجلست على أريكة تحت أمطار أغرقت ملابسي، طال بي المقام قرابة الساعتين حتى سرت في جسدي سخونة حمى، فعدت إلى مسكني بالحي اللاتيني، وألقيت جسدي المرتجف على السرير ونمت ليلتي بملابسي المبتلة منهكًا فاقدًا الوعي.

أعدت فطيمة ترتيبات الاجتماع المرتقب، أبلغت كل العاملين وجهزت جدول أعمال كيفما اتفق معها ربيع، غير أنه لم يحضر في ميعاده الصباحي، قامت بمهاتفته عدة مرات، ولكن دون أن يأتها رَدّ منه. فما كان منها إلا أن أبلغت سيمون والتي هاتفته بدورها فلم تنل منه ردًّا أيضًا. كانت سيمون مدركة للحالة التي بدا عليها ربيع ليلة أمس، وساورها قَلَق عليه فأمرت فطيمة باصطحاب أحد الموظفين والذهاب إلى مسكنه لتحرِي أمره، وصلت فطيمة إلى المسكن، كانت سيارة ربيع قابعة أمامه، فأسرعت تضغط زر الجرس، لكن دون جدوى، اقترب مرافقها جوزيف من نافذة البيت، نادى فطيمة، كان ستار النافذة منحسرًا، جال بناظريه عبر الزجاج، هاتف ربيع ومفاتيحه الخاصة ملقاة على الأرض وإنارة الصالة مضاءة.

هتفت فطيمة: هو بالداخل بكل تأكيد.

رد جوزيف: أخشى أنه مصاب بمكروه..

أشارت إليه أن يتبعها: لا سبيل إلا إبلاغ الشرطة.

تناولت هاتفها، واتصلت برقم الدوريات، شرحت بعض التفاصيل، وأبلغت بالعنوان.

دقائق قليلة وكانت سيارة الشرطة تَمْثُل أمام البيت، أسرع الضابط لمعاينة الباب

والنافذة، لا توجد آثار تخريبية، ثم قام بمعالجة المزلاج حتى استجاب وانفتح، هرول الجميع إلى الداخل، في غرفة النوم كان ربيع يتمدد على سريره مغشيًا عليه.

أمسك الضابط بيده، كانت متقدة الحرارة

فأسرع باستدعاء سيارة إسعاف..

انتقل ربيع إلى المشفى، وسرعان ما امتثل للإسعافات واسترد وعيه، لكنَّ قواه منهكة، غير قادر على الحديث، عاجز عن إدامة النظر.

وقفت فطيمة خارج حجرة المشفى تتطلع إليه عبر الزجاج الحاجز، انتبهت لوقع خطوات سيمون قادمة بعد أن أخبرتها بما حدث..

* هل أفاق؟

- نعم، يبدو أنه مَرّ بليلة عصيبة.

أدارت سيمون عيناها عن وجه ربيع إلى فطيمة:

* هل تحدث معك ربيع بشأني؟

تمعنت فطيمة قليلاً

- سألني بالأمس إن كنتِ مرتبطة بعلاقة مع شخصٍ ما.

لكني لم أسترسل في نقاش معه، إذ بدا مذهولاً عندما أخبرته كونك أرملة.

هل حادثك في هذا الأمر؟

* نعم، وقد عنَّفته على تدخله في شئوني الخاصة.

أمسكت فطيمة بذراع سيمون وهمست برفق:

- يبدو أنه صُدمَ بالأمر.

هزت سيمون رأسها، وهي تعاود النظر إليه:

* وماذا كان ينتظر مني؟!

همت فطيمة بالرد فصمتت إثر ارتفاع صوت هاتف سيمون باتصال.

إنه دان، يستعلم عن حالة ربيع.. طمأنته سيمون ثم عادت إلى فطيمة باسمة:

* أبي يظن أن أحدهم تعرض لربيع.

- ومن أخبر السيد دان؟

* وهل هناك غيره، أنه ذلك الجالس هناك، جوزيف.

- وماذا قال له أيضًا هذا البغيض.

* كان ربيع في أحد البارات مصطحبًا فتاة ليل إلى بيته وهناك داهمه غريم.

- يالسرعة خيال جوزيف هذا، أإلى هذا الحد يريد تشويه ربيع؟!

* لقد حذَّرته مراراً من الإساءة لزملائه عند أبي

- تطرفه العنصري يجعله لا يكفُّ عن إثارة الفتن بين العاملين والإساءة لبعضهم البعض.

* أبي يضيق بسلوكه، لكن كما تعلمين فهو يحمل عبأ الشركة على كاهله، وتعاملات العملاء تمر بين يديه، على كل حال لا أظن أنه يستطيع النَّيل من ربيع.

* نعم، ربيع رجل شديد المراس وعنيد، إضافة إلى كونه ناجحًا، وهذا ما يُعزِّز موقعه لدى السيد دان.

* فلندخل لنطمئن.

لازلت يا زيزو أكاشفك وليس غيرك ائتمنه على مكنون عواطفي الذي تفجر دون إرادة مني، لحظة أن دنت مني سيمون بالمشفى كنت بين الحلم واليقظة، تتداعى صور وأصوات متضاربة بوعيي الباطن، غير أني أفقت على حضورها وكأن كل حواسي استشعرت وجودها، إنها ذات اللحظة التي يودّع فيها الغريق الحياة موقنًا أنه هالك لا محالة حتى إذا استسلمت كل دفاعاته لمصيره المحتوم وجد يدًا تمتد إليه تنتشله فتهبه حياةً جديدة، نعم يا صديقي، أنت تعلم أني لم أكن أتذوق الأشعار وحكايا العاشقين لكنني أبوحك بصدقِ ما لم أذقه في مسيرتي الدنيوية من لذة الاقتران بقلب أنثى.

وجدتني ودون إدراكٍ أو وعي أفتح بصري الذي ألف الظلمة منذ الليلة الماضية على وجهها المتشرب بالضياء، بادلتني ذات البسمة، نعم هي ذات البسمة التي تطبع شفتاها دائمًا بلا تكلُّف وفي كل وقت، لكنها هذه المرة كانت ذات روح، روح تسللت بدفء إلى جوانحي، فشعرت بحرارة دفئها تجذبني من غيبوبتي إلى الواقع الملموس، فانتبهت إلى حالي، ثم تلفت حولي بحثًا عن استيعاب لما أنا عليه، ولعلها شعرت بحيرتي إذ قالت:

قلقنا عليك، هل أغرتك أمطار الأمس بالسباحة في الطرقات!

كان صوتها حنونًا كأم تهدهد وليدها في مهده.

اقتربت عند رأسي.. وضعت يدها جبيني تستشعر مستوى الحرارة، يا الله هذه الفتاة تخفي بداخلها أنثى ثرية المشاعر. لكنها تمنحها بحساب، وقتما تريد هي، لا كما يريد الآخرون.

* سنتركك الآن أنا وفطيمة، سيبقى جوزيف معك بالخارج، اطمئن وضعك مستقر بفضل الله.

انتفض قلبي بين جوانحه، ليتها تبقى هنا، ليتها لا تفارقني أبدًا.

فتحت الباب وخرجت دون أن تُعَقِّب، بلا نظرة وداع، ظلت عيناي معلقتين بها وهي تمر أمام الجدار الزجاجي حتى اختفت، وعاد الظلام يطبق من جديد على عالمي الداخلي، وغبت مرةً أخرى في سبات عميق.

# الربيع يتجدَّد كل عام

-٣-

أغلقت سيمون باب المنزل، ألقت بجسدها على أريكة تتصدر مجلس الصالة الصغير، أغمضت عينيها وسحبت شهيقًا عميقًا، ثم أطلقته في زفيرٍ سريع، ارتخت أوصالها، شعرت بالخدر يتسلل إلى جسدها.

راحت تتحلل من حجابها، ثم أطلقت شعرها ينسدل مسترسلاً على ظهرها، استجمعت طاقتها مرة أخرى، ثم قامت تستبدل ملابسها بملابس منزلية ثم توجهت لتتوضأ، راحت تنعش وجهها وأطرافها بالماء، استفاقت قليلاً من خدر النوم المتلبس بجفونها، وقفت قليلاً تتأمل وجهها بالمرآة، تراءى وجه عبد الله مبتسمًا بلحيته الطويلة يقف من خلفها واضعًا يديه على عينيهًا مداعبًا، فتحتضن يديه بيديها وتخفضهما إلى شفتيها:

جهزت المصلَّى كي نصلي جماعةً.

كان لا يدع فرصة للاستزادة من النوافل، وكان حريصًا أن تجمعهما صلاة متى سنحت لهما الفرصة. ارتفع طيفه محلِّقًا بجناحين في أُفُق المنزل الضيق، راح يضرب بجناحيه كملاك حتى غاب عن خيالها.

آبت إلى المصلَّى، غابت في صلاة طويلة، تخللتها أدعية خاشعة، تلت خلالها سورة الفتح، والتي كانت آخر عهدها بعبد الله؛ إذ كانت آخر سورة لقَّنها إياها قبل رحيله، فظلت آياتها قرينة بحضوره.

تشبعت سيمون من وجبتها الإيمانية، فحلت السكينة على روحها، قامت إلى غرفتها، نظرت إلى الساعة، كانت تقترب من السادسة، لا يزال أمام فطيمة ساعة حتى تعود ليتناولا الطعام سويًا.

تمددت على السرير، تواجهها صورة كبيرة على الحائط تجمعها بعبد الله، أغمضت عينيها، راحت تستعيد ذكرى أول لقاء.

كان ذلك منذ عامين، في سنتها النهائية بالكلية، وكانت بالمكتبة تسأل عن سيدي ترجمة كتاب "معالم في الطريق"، بعدما فشلت في الحصول على الكتاب مطبوعًا

بمكتبات باريس، وكان هو بدوره يتفقد كتاب "صراع الحضارات" لصمويل هنتنجتون، في البدء شدَّ انتباهها مظهره اللافت للنظر بلحيته الغزيرة، ظلت تتابعه حتى حصل على سيدي الكتاب، فبادرته بتحية.. ثم سألته إن كان يعلم شيئًا عن كتاب المعالم لحاجتها إليه في بحثها عن الأصول الفكرية للجماعات الراديكالية المؤثرة في التاريخ الحديث.. ابتسم لها ابتسامة هادئة طويلة لربطها بين مظهره وبين كتاب المعالم..

اتفقا على لقاء بعد أن يحاول الحصول على الكتاب الورقي، مضت عدة أيام حتى أتاها صوته عبر الهاتف معتذراً لعدم عثوره على ترجمة فرنسية.. لكنه استدرك بأنه يملك النص العربي، وأنه بإمكانه مساعدتها بأن يترجمه لها صوتيًا؛ لأنه يتقن اللغة العربية.

تعددت لقاءاتهما بمكتبة الكلية، هو يقرأ مُترجمًا وهي تُدَوِّن مقاطع وملاحظات.

انتهت علاقتهما العابرة بانتهاء ترجمة الكتاب، ومضت أسابيع عدة.. حتى دعاها لندوة سيلقي خلالها بحثًا عن حقيقة المحرقة اليهودية كما يراها الفيلسوف روجيه جارودي.. تعرض لنقاشات نقدية صاخبة وعنيفة، وفور انتهائه من إلقاء بحثه هاجمه أحد المتعصبين اليهود، وحاول أن يُلقي بمادة حارقة على وجهه، لكن عبدالله استطاع تفاديها، هرولت إليه سيمون ورافقته إلى الخارج وظلت معه طيلة اليوم، فكانت فرصة لتتوطد علاقتهما بشكل مستمر عبر سلسلة من المناقشات الهادئة والصادقة حول مقارنة الأديان وعلاقاتها البينية.

ذات يوم دعاها لندوة بالمركز الإسلامي حول كتاب "الإسلام بين الشرق والغرب" للمفكر علي عزت بيجوفيتش، لبّت سيمون الدعوة، وكان هذا اللقاء هو بداية عهدها في البحث عن الإسلام.

لم تكن سابقًا تُبدي اهتماما بالإسلام كدين، ولم تكن دراستها الأكاديمية بالشغل الشاغل لها.. فقد نالت من أبيها حب العمل الاستثماري، لذا شاركته إدارة أعماله منذ اشتد سوقها. وباتت المديرة التنفيذية للوكالة، بينما تفرّغ هو للمصنع الذي أنشأه بلندن.

وظللت دراستها مجرد روتين تعليمي لا يُلامس اهتماماتها الواقعية.

حتى كانت على موعد قَدَرِي بمكتبة الكلية بعبد الله، وكانت منغمسة بإعداد بحث كلَّفها به أحد الأساتذة، وكانت البداية لعالم جديد وَلجت إليه من حيث لا تدري.

بعد ندوة المركز الإسلامي وجدت سيمون عقلها يطرح الأسئلة عن الإسلام، ولم يكن ذلك بالأمر المفاجئ لها؛ إذ إن العالم كله مشغول بمحاربة الإرهاب الذي لا يُذْكَر إلا قرينًا بالإسلام.

لكنها عبر دراستها كانت تدرك بوعيها الباطن أن ثمة معضلة ما في ربط الإسلام بالإرهاب، كانت هذه هي قناعتها لكن لم تُلِحّ يومًا في فهم وتفسير هذه المعضلة، فلم تكن هذه الأمور من أولوياتها..

ونتيجة للإلحاح المفاجئ حول فهم الإسلام وجدت نفسها تطلب من فطيمة اصطحابها إلى المركز الإسلامي، وواظبت على حضور ندوات التعريف بالإسلام، والتي كان يحاضر خلالها فرنسيون مسلمون.. ما أضفى على قناعاتها مزيدًا من المصداقية.

وتكرر تواصلها مع عبد الله كرافد علمي لبحثها وكمَعين تروي منه ظمأها الناشئ للإسلام.

لم يمضِ وقت طويل حتى استوعبت سيمون احتياجها الروحي للإسلام.. فنطقت الشهادة بحضور فطيمة وعبد الله بالمركز الإسلامي.. ونتيجة لذلك زاد ارتباطها بالدراسة والبحث فلم تكتفِ بنيل الشهادة النهائية، فقد شجّعها عبد الله على استكمال الدراسات العليا، وقد كان.

لم يهتم أبوها بهذه التغيرات؛ فهو من أتباع المذهب الوجودي، بل لم يُعْرِ ارتباطها بعبد الله اهتمامًا، ولكنه أبدى اعتراضًا على تتويج هذه العلاقة بزواج رسمي!!

وهكذا انتقل اهتمام سيمون من عالم البيزنس إلى عالم البحث والدراسة الذي أوغلت فيه حتى النخاع بعد زواجها بعبد الله.

تداعت هذه الذكريات بوعي سيمون وهي مغمضة العينين تنتظر إياب فطيمة من الوكالة، كان عبد الله فرنسيًا خالصًا من أب وأم فرنسيين، وكان شديد الاعتداد

بإسلامه، ولا يدع مجالاً للدعوة إلا وسلكه، ولكنَّ نشاطه الدعوي ومجهوده العلمي لفضح افتراءات اليمين المتطرف ضد الإسلام والمهاجرين المسلمين كان يَجُرّ عليه المشاكل باستمرار.. وكانت التهديدات تصله بشكل يومي، استشعرت سيمون الخطر المبكر على زوجها ورفيق عمرها وتملَّكها الخوف أن يناله أذًى ما.. فلمّحت له أن يكتفي بندوات المركز الإسلامي الدعوية، لكنه ذات ليلة قبل عام كان على موعد مع قَدَره، عندما دعا لتظاهرة ضد قرار منع الحجاب الإسلامي بالمرافق العامة، ونجحت دعوته؛ إذ استجاب حشود كبيرة كان لها تأثير في التراجع عن القرار.

لم يمرّ نجاحه مرور الكرام على حاقديه المتربصين، واستطاعوا النيل منه.. وارتقى عبد الله إلى رفيقه الأعلى شهيدًا.

فتحت سيمون عينيها على صورة صغيرة إلى جوارها، تجمعها بعبد الله.. تناولتها وضمتها إلى صدرها، وقد انهمر الدمع على وجنتيها.. لم تشأ إرادة الله أن تُرزَق بمولود منه.

أفاقتها فطيمة من شرودها، مناديةً إياها من صالة البيت، خرجت سيمون، وهي تمسح دمعها، احتضنتها فطيمة، وقد فهمت ما يعترك بصدر صديقتها:

هَوِّني على نفسك يا أختاه، لا بد للحياة أن تسير.. لماذا تُصرّين على النظر إلى الماضي!

يا سيمون أنت تسجنين شبابك ظلمًا داخل قضبان الوفاء لعبد الله، كفاك قسوةً على نفسك، حياتنا كلها أقدار معلقة بيد الله سبحانه، تتعدد الأسباب والموت واحد يا صديقتي..

أجهشت سيمون بالبكاء وعلا نحيبها، ضمّتها فطيمة إلى صدرها، وجلست تربت على رأسها.. أيّ دموع هذه يا سيمون؟

- أهي دموع الفقد والاشتياق؟

أم أنها دموع إحساس بالذنب يعتريك!!

لا تنسي أني صديقتك الصدوقة، وأكاد أعي كل ما يعتمل بصدرك؟

تكلمي يا سيمون ولا تتحرجي، إن القلوب بيد الرحمن لا حيلة لنا فيها.

جاهدت سيمون دموعها وهمست بصوت تملأه العَبرات:

- نعم هي دموع إحساس بالذنب يا فطيمة.. لم أكن أتخيل أبدًا أن يميل قلبي بهذه السرعة نحو شخص آخر غير عبد الله، أحس أنني أخونه كلما حلَّ ربيع بخاطري.

احتضنتها فطيمة بحنان وربتت على رأسها:

- لا تقسي على نفسك يا صديقتي.. أنت تظلمين نفسك إن وهبت شبابك وعُمرك للموت!! ليس من الوفاء لعبد الله أن تحكمي على مشاعرك بالفناء للأبد..

هذا ليس من الإسلام يا صديقتي، وأنتِ تعلمتِ ذلك جيدًا في المركز الإسلامي.

رفعت سيمون نظرها إلى فطيمة بادرتها بنظرة رجاء طويلة، وكأنها تؤمِّن على حديثها الحاني.

ثم اعتدلت أمامها، وقد أذهبت كلماتها ما ألَمّ بصدرها من ضيق، وأشرق وجهها بحب لهذه الفتاة الصدوقة التي ملأت فراغ الأم، نعم أم وليست شقيقة أو صديقة، ففطيمة تعاملها معاملة الأم لابنتها.. تمنحها الحنان والعطف، وأحيانًا القسوة في مقام التنبيه والتوجيه.

وربما كانت السنوات القليلة التي تفصل بينهما هي ما جعلت العلاقة بينهما تتجاوز حدود الصداقة إلى هذا الشكل..

ولَكم تخشى سيمون من اليوم الذي تضطر فيه فطيمة إلى تركها إذا ما اقترن قلبها برجل..

ماذا تفعل حينها؟! هل تملك منعها من استكمال سياق حياتها الطبيعي بالزواج ومن ثمّ الرحيل عنها؟؟

لم يكن أمامه بُدّ إلا احترام موقفها وعدم الإلحاح في استدرار مشاعرها، خاصةً أنها ردته ردًّا جميلاً لم يُنقص من رجولته شيئًا.

وقرر أن يستغل طاقة العاطفة الفياضة في إنجاح عمله.. فصار جُلّ طموحه أن يكون جديرًا يومًا ما بسيمون حتى وإن لم يُصِب منها قبولاً.

تعززت نجاحاته وتفوق على نفسه في إدارة العمل وقيادة الموظفين، وصار

يواصل الليل بالنهار، وزادت الصفقات مع التوسع في السوق والتمدد ببلدان جديدة ومواكبة كل تطور تكنولوجي، وإرضاء أذواق العملاء، ومراقبة المنافسين، وتحديث العروض وسياسات البيع والتسويق..

والغريب أن ربيع صار مريدًا للمركز الإسلامي، وتقدم للدراسة الشرعية به حتى حصل على دبلومة في علم التوحيد في أقل من ستة أشهر.

وتقدم لدراسة إدارة الأعمال عن بُعْد بقسم التعليم الإلكتروني بجامعة باريس..

وفي أقل من عام كان لربيع بيزنس خاصّ به، لكن دون تعارض مع عمله مع مستر دان.

وفي دراسته المفتوحة بجامعة باريس استعاد ربيع نشاطه في تحصيل العلم والمعارف، وهو الذي لم يقرأ كتابًا واحدًا منذ تخرّجه من كلية السياحة، وصار الكتاب رفيقه في وحدته..

وتنوعت قراءاته ما بين علوم الإدارة والعلوم الاجتماعية والأدبية، كان دون أن يشعر يحاول تقليص الفارق الثقافي بينه وبين سيمون، لذلك أوغل في القراءات الإنسانية التي تتخصّص بها، وكانت دراساته وقراءاته هذه تحوّلاً كبيرًا في شخصيته؛ إذ روّضت طغيان الجانب العملي الطاغي عليه منذ التحق بعمله مع دان.. بل إنه صار روحانيًا أكثر من ذي قبل.

فلم يَعُدْ يمارس العبادات بذات الشكل الروتيني كواجب عليه إنجازه، وصارت قراءته للقرآن ذات تفكُّر وتمعّن بعدما كانت مجرد تذوق لجماليات التلاوة.. وازداد معينه الإيماني أكثر بمواظبته على صلاة التراويح في رمضان وختمه قراءة القرآن ربما لأول مرة بتمعّن وتفهّم، فانصهر ما كان يعانيه من تراكم نفسي يطبق على روحه، وتفككت متناقضات كانت ألمّت به منذ وطئت قدماه القارة الأوروبية.

أمعن أكثر في قراءة التاريخ، وجد نفسه مشدودًا للحقبة الإسلامية، وخاصة فترة الحكم العثماني لاقترابها من العصر الحديث، وارتباطها بالواقع الحالي الذي يعيشه الشرق الأوسط.

وبدا أنه يلج عالم الروح لأول مرة، وكأنه خرج من جاهلية ظلماء إلى أنوار ربانية

صافية.. هل كانت عاطفته تجاه سيمون هي المحفِّز؟

سأل صديقه زيزو ذات رسالة: لا أصدق أن كل ما أمرّ به من متغيرات مرجعه لهذا الحب الطاغي..

فردَّ عليه زيزو: بل هي فطرة الإنسان المتأصلة، تنكشف إذا ما أزلنا عنها ركام الدنيا وشهواتها.

بين عمله ودراساته وقراءته مضت أيام ربيع برتابة، وكان سعيدًا راضيًا بما استقر عليه حاله، ولكنه كعادته يتململ سريعًا، لا يستقر لحال، ربما كان يعانيه من وحدة وعزلة فرضها على نفسه، وربما بسبب غياب سيمون عن حضور إلى الوكالة لفترة طويلة..

ذات صباح من صباحات أبريل الدافئة تلقَّى اتصالاً من دان يطلب منه الإعداد لحفل ضخم احتفالاً بحصول سيمون على الدكتوراه.. وفي اليوم المنتظر كان الجميع على موعد مع مناقشة الرسالة، وتوجت بمرتبة الشرف والترجمة إلى اللغات الأجنبية، واحتفت المراكز البحثية بالرسالة، وأشادت بها أكثر من دورية أكاديمية..، إذ كان موضوعها فكر التعايش الإنساني عند فيلسوف المسلمين ابن رشد.. بعد انتهاء مناقشة الرسالة انتقل الجمع إلى قاعة احتفالات بأحد فنادق باريس الشهيرة، وكانت المفاجئة التي لم تخطر أبدًا على بال.

نعم يا زيزو كان قلبي مكلومًا، ولم تفلح النجاحات ولا المجهود الشاق الذي أبذله في صرف سيمون عن خاطري، وكنت يا زيزو فاقدًا لأيّ أمل أو رجاء منها، فوطدت نفسي على حب موءود لا حياة مرجوةً له، ومَنّيت نفسي بقربها فقط كأقصى ما أستطيع نيله من هذا الحب المقطوع.

غير أن دان في احتفالنا بالدكتورة سيمون قلب كل ما يعتمل بقلبي رأسًا على عقب.. فقد وقف وسط الجمع منتشيًا بفرحته وجواره سيمون كما البدر، وصاح بالجميع أن ينصتوا، وأعلن أنه قرّر إضافة شريكين لشركته:

الأول هو ابنته سيمون، والثاني هو ربيع الحسيني..

أيّ مفاجأة تلك يا دان، شعرتُ أن الأرض تميد بي من فرط عدم تصديقي ما

أسمع، ولم أنتبه إلا على ذراعي دان وهي تحتويني بحضنه، ثم الحضور يهنئني، نعم يا زيزو أنا شريك لدان في أكبر وكالة تصنيع وتوزيع الملابس بفرنسا، ليس هذا فحسب.. بل إن سيمون شريكة لي أيضًا.. فأيّ حظ هذا كان يدخره القَدَر لي.. بعد كل هذا الشتات.

لكنها هناك تقف بين قريناتها ترقبني وعلى وجهها علامات رضا وسعادة بهذا القرار وكأنه لامس أمرًا كانت ترجوه، بل لعلها هي ذاتها تقف خلف هذا القرار.

وجدتني يا زيزو أنسرب من أجساد المهنئين إلى حيث هي -سيمون-، ومددت يدي إليها، فتلاقت اليدان، هنأتني بالقرار، وعيناها تغوصان بعيني، تبوح بالكثير.

في ذات اللحظة صفقت فطيمة وهتفت:

حان تناول العشاء يا سادة..

توجه الحضور إلى مائدة الطعام، وأسرعت فطيمة إلى سيمون وأخذت بيدها، وقالت: سأكون أول مهنئة لكما.

ولم يعلق ربيع بل ظل مادًّا بصره إلى سيمون، والتي بدورها كانت هادئة لا تُبدي انفعالاً واضحًا..

لكن فطيمة هتفت: لم يعد في الأمر اختيار، وقرصت سيمون في وجنتها بطريقة مازحة وأردفت: يلزمنا حفل آخر هذه الليلة..

انتهى الحفل، وبقينا أنا وسيمون ترافقنا فطيمة عيوننا ترنو إلى المستقبل.

تحياتي صديقي عبد العزيز –زيزو–.

أراك عما قريب -إن شاء الله- بالإسكندرية لنحتفل سويًّا بزواجي من سيمون.

انتهت

## ملح الأقدام

هو نفسه أراه ربما للمرة الألف يعبر الطريق.. حاملاً المدرة بيد، وفي الأخرى السبت الخوص. بملابس بالية.. عتيقة اهترأها يد الزمان تماماً كالتجاعيد التي تحفر أخدوداً على وجهه النحيف.. تدبّ ساقاه النحيفتان الأرض المالحة.. يخطو بثبات غير عابئ بالريح التي تُصفِّر حاملة سُحُبَا داكنة تنذر بمطر غزير.

أمعن النظر إليه وهو يوغل في ظلمة الشاطئ... لا ضوء سوى أشعة منسربة من نجم وحيد تبهتها السحابات الداكنة، أسمع صوت ارتطام المدرة على الفلوكة فأوقن أنه وصل إلى هدفه بعد برهة سيشعل لمبة جاز قديمة، ليحدد موقعه بالضبط.

من بعيد يتناهى صوت وشوشة شعلة وابور الجاز معلنةً عن إعداد كوب شاي تحضيري للرحلة الليلية في عمق البحيرة. تبزغ نقطة متوهجة هي بالتأكيد لسيجارة كليوباترا يجلس ينفس دخانها على طرف الفلوكة ها هو يدفع الفلوكة إلى الماء الساكن.. يدفع بالمدرة في جوف الماء بهدوء وقوة تخوض الفلوكة في عمق الظلمة القاتمة لا ملمح لها إلا شعاع ضعيف متراقص من اللمبة الجاز.

سكن غير بعيد عن الشاطئ، ألمح خياله يتمايل كشبح يفرد الشباك.. ثم ها هو صوت ارتطامها بصفحة المياه يكسر جدران الصمت.. يعاود شبح الرجل الجلوس عند المقدمة.. يسلط مصباحه الجاز إلى حيثما ترقد الشباك ينقر على خشب الفلوكة[1] بشيء صلب نقرات منتظمة.. هي بالتأكيد وسيلة من وسائل المهنة لاستجلاب السمك مع ضوء لمبة الجاز إلى فخّ الشباك، تتسلل نقراته إلى مسامعي.. فترتخي لها أذناي..

ينتصب الشبح واقفًا ممسكًا المدرة[2].. يندفع إلى جوف البحيرة طمعًا في غنيمة وفيرة.

---

[1] - قارب صغير، وهو اسم دارج عند الصيادين

[2] - عصا طويلة من البوص الجاف يستخدمها الصيادون في دفع القوارب.

أجلس دقائق طويلة قد تمتد للساعة أنتظر أوبته.. متأملاً هبات الريح الساخطة.. هي عواصف أمشير الصاخبة تكنس الشوارع من المارة.. لا سيارة.. لا هوام.. فقط مواء قطة صغيرة يخترق جدران السكون لتصنع مع خشخشات الريح عالمًا سرياليّا.

أرمي بنظرة كل حين إلى الشاطئ.. أترقب خروج الشبح حاملاً سبت الخوص عامرَا برزق الصباح..

هي الريح الأمشيرية تعلن ثورتها.. أغصان الشجرة الصغيرة تتمايل يمينًا ويسارًا وأسفلها صوت المواء يتقطع حزينًا، يقاسي البرودة ووحشة الوحدة.

أجوب سطح البحيرة الذي تشغله أعواد البوص الطويلة؛ عساي ألتقط هذا القارب المنفرد، تبدأ الأعواد في التمايل فتحدث صوتًا جماعيّا....

ششششى.. شششششى... شششششى... شششششى

قطرات من المطر تدفعني إلى غلق النافذة.

أعود إلى صوت أم كلثوم يصدح بألف ليلة وليلة..

يتسلل دفء الغرفة إلى أوصالي.. أستسلم للنوم، على أمل أن أستيقظ صباحًا على صوته داخل حلقة السمك مساومًا التجار على حصيلة الرحلة الليلية... السعر حسب الحجم والكمية.. فأفيق من نعاسي على أيمانات تطول السماء والأرض والشرف والعِرض، وينتهي الأمر بانتصاره غالبًا، ويحصل على ما قد حدَّده سلفًا.

أرمقه من ذات الشرفة وبنفس هيئته الليلية التي لم تتغير في وضح النهار يمسك بورقات الجنيهات المعدودة.. ينتقل إلى السوق كي يبتاع طعام اليوم..

يؤوب إلى بيته لينال نصيبه من النوم توطئةً لرحلة ليلية جديدة..

# وهم

كانت ترسم له في مخيلتها صورةً مثالية
رجل أربعيني وسيم..
مُقْبِل على الحياة بحماسٍ وقوةٍ
كانت كلماته عبر الأوراق تنحت تمثاله الهلامي في متحف ذاتها
تسبح عبر أبياته إلى آفاق رحبة من العشق لا تحدَّها حدود
إلى جنان فردوسية تعمرها المشاعر الفياضة
كانت تحيا معه في صحوها ومنامها
وكأنها تراه وتُكلِّمه
كانت تُمنِّي نفسها باليوم الذي تراه فيه واقعًا
وتحادثه وجهًا لوجه
حفظت كل أبياته عن ظهر قلب
تردِّدها بين جنبات صدرها
جمعت كل مقالاته في الصحف داخل أدراجها الخاصة
كتبت له خواطر تبثّهُ الأشواق والحنين
وأودعتها بين دفّات الكتب
خطَّتْ له بأناملها رسمًا من خيالها
ما إن علمت عن إقامة ندوته الشعرية ببلدها
حتى هرعت تشتري ثوبًا جديدًا...
وتفجّر الأمل في قلبها نشوانًا
ها هو يأتي إلى مدينتها سعياَ إليها
ستلتقيه أخيراَ بعد أعوام من الوصال بالحروف
وستُشبع عينيها من نظراته

وتُطفئ لهفة الأشواق
سيسيران سويّا متعانقي الكفين على رمال الشاطئ
يناجيان القمر
يُنصتان لوشوشة الأمواج
ولعله يحملها على ذراعيه، ويغوص بها في ظلمة البحر
مرّت الأيام لا تكلم إنسيًا
ولا تشتهي طعامًا
لا شيء في الوجود إلا هو
حتى أتى اليوم الموعود
تزيّنت بالثوب الجديد
وأمعنت في إبراز جمالها
تُريده أن يراها أجمل امرأة في الوجود
هرولت مبكرًا
وحجزت مكانها في المقدمة
جلست تَعُدّ الثواني والدقائق
حتى أُعلن عن وصوله
قفز قلبها
بعد لحظات معدودة ستواجهه
تراه سيعرفها
هل سيبهره جمالها
تنقلت نظراتها في لهفة بين الوجوه
جلس أحدهم على المنصة
تعالى التصفيق
وارتفعت الأكف تُحيي
لا... لا

ليس هو...
ليس الوجه الذي ألفته بين صفحات الكتب
ليست الملامح التي رسمتها من وحي خيالها
ليس الصوت الذي ناجها في صمت الليل
من تراه الآن رجل كهل.. أشيب الشعر
بلحيةٍ مُشعَّثة تتناثر في غير تناسق على وجهه
تخرج الحروف مبعثرة في غير ترابط
أسكبت الدمع على وجنتيها.. خرجت إلى الشوارع الليلية
تماهت بين الزحام..
حتى وصلت إلى الشاطئ المظلم
نظرت إلى الماء الأسود
رأته من بعيد في ظلمة الأفق يمدّ يده
على فرس أبيض مجنَّح
تقدمت إليه بلهفة واشتياق
غاصت بقدميها في المياه
تتقدم أكثر فأكثر
يغمر الماء جسدها
تُلَوِح له بكلتا ذراعيها
يغوص جسدها أكثر فأكثر
يختفي وجهها في ظلمة الماء
يطفو جسدها هامدًا بلا حراك
لا نبض فيه
لا روح

# أكل العيش

وأنت تستيقظ باكرًا على صوت عم سيد يؤذن للفجر
تلسعك برودة انبلاج يوم جديد..
تتثاقل في فراشك من لذة الدفء وكسل الجفون
يُلِحّ عليك المنبَه في اللحاق بالجماعة..
تشمّ رائحة الهواء المعبّق بأنفاس البيوت الساكنة
تُسَرّ للمشهد التقليدي لعبد الحميد عامل البناء يحمل كعادته (فوطه) على كتفه ليغتسل بمرحاض المسجد..
تُلْقِي الصباح على صاحب المخبز المجاور، والذي ما تفتأ تنسى اسمه رغم الجيرة الممتدة لسنوات طويلة..
تجذب خيوط الخشوع والتبتّل في محراب الشوق إلى الله..
ساجدُ تغمض عينيك وكأنك تريد الانفصال عن الوجود في معية واحدة مع الخالق سبحانه..
تتناول كوب الشاي بالحليب كعادتك كل صباح..
تحمل حقيبة اللاب، تنطلق إلى عوالم الدنيا متمتمًا بأذكار الصباح مودعًا أهلك.
تنفرج روحك بأسارير النهار المستحيي، يتكحل بنُتَف من السحاب الخريفي الخفيف..
تحط رحالك السماوي مع بزوغ الحركة البشرية التي بدأت تدبّ في الشوارع متسارعةً للحاق بأرزاق الله..
تتسلل إلى روحك آيات ((سورة آل عمران)) بترتيل أحمد العجمي العذب، فتسترخي وأنت تقاوم الانصهار بين الوجوه المزدحمة بعينيك.. محاولاً التشبث بالجرعة الإيمانية وحالة الخشوع الصباحية للحظات قليلة..
سرعان ما ستفقدها فور ولوجك إلى بوابة العمل واختلاطك بدنيا البشر
تقلّب النظر في وجوه يحفرَ السعي الدؤوب ملامحها.. تحثّ الخطو معبأَ ناظريك بها.
يرتفع صوتُ عجوزٍ ينادي بائع الخبز بإلحاح وتزمر وسط كتلة الزحام..
تخرج السيدة من بين الأجسام نحيلة واهنة.. تسكب قطرات الشكوى والتذمّر من

عينيها..

تُرَى هل من العبث أن تسألها عن رأيها بالدستور؟!

تمضي القدمان مهرولتين؛ فدقائق الصباح عزيزة..

تلقي السلام مسرعًا على البقال ذي الوجه العابس.. قبل أن يُخرِج فرشته التي تَسُد الطريق على المارة.. يقلب القنوات باحثًا عن القرآن الصباحي ليستفتح به بركات الرزق. تُرَى هل من العبث أن تسأله عن رأيه في مواقف القضاة؟!

وتزجّ بجسدك النحيل داخل السيارة السوزوكي التي غزت البلاد مع التوك توك والموتوسيكلات..

عن يمينك أحدهم يسألك: لم نعد نراك بصلاة العشاء؟ تهز رأسك بإيماءة صامتة: (أكل العيش بقى).

وعن يسارك سيدة عجوز أخرى... بائعة الخضار بالشارع الخلفي.. لعلها ذاهبة لجلب بضاعتها من سوق المدينة..

ازيك يا حاجة!!

أنت مين مش واخده بالي؟؟

(هو الشيب الكثيف الذي غيّر ملامحك)

تُتمتم: ربنا يديكي الصحة

عند عربة الفول وجوه كثيرة تجمعها كآبة الملامح وخفة اللسان.

وصاحب العربة لا يكفُّ عن سباب صبيه، ما يطول الأعراض والأديان.

- ارحم نفسك يا أبو محمود

- هما ولاد إل... خلوا فيها رحمة

تهم بسؤاله عن رأيه فيما هو حادث..

تكتفي برجاء وأمل (إن شاء الله هتفرج)

تأتيك سارينة الباص صارخةً

تحمل كيس الطعام مهرولاً

تودِّع الوجوه بنظرة أخيرة

تصعد الباص.. تجلس بكرسيك الأبدي

تُلقِي التحية على الوجوه الناعسة
تعتَدل في جلستك
تفرد الجريدة
تَلِج مع الباص إلى دوامة يوم جديد من أكل العيش.

# حدوتة سليمان

استيقظ على صوت الأذان كعادته كل يوم، توضأ من الطلمبة أمام البيت.
تَبِع أباه إلى الجامع.
رفض كالعادة الرجوع إلى الصف الأخير، ظل واقفًا باعتزاز وسط الرجال بالصف الأول.
سحب كتاب القراءة، واستند بظهره تحت شباك البيت الطين يراقب شروق الشمس.
ردَّد وِرْد الصباح مثلما علَّمه أخوه الأكبر.
فتح الكتاب.. ظل ساعة يذاكر حتى أسفرت الشمس .
جذب شنطته بهمة وحماس، سابَق الريح إلى المدرسة .
وقف بالطابور يحيي العَلَم.. يختاره الناظر لقامته الطويلة وصوته القوي
في الفصل يرفع يده للأستاذ يريد إجابة السؤال
سمع فجأةً صوت الطائرات
لم يُبالِ.. كلّ يوم طائرات تروح وتجيء منذ حلت النكسة، ما الجديد؟!
بعد دقائق ارتفع صوت الناظر صارخًا وسط الفناء:
انزلوا يا ولاد بسرعة.. إسرائيل تَضرب
التلاميذ صاروا يجرون بهلع، يدوسون بأقدامهم على بعضهم البعض من الرعب
وقف سليمان مثل الجبل، عينه إلى السماء من النافذة..
ناداه الأستاذ: ماذا تنتظر يا سليمان انزل بسرعة
سليمان لم ينسَ أخاه الذي عاد مصابًا في رجليه من سيناء خلال النكسة..
(كان صغيراً لا يدرك).
لكن الحزن الذي خيَم على البيت والحسرة التي حلت على وجوه أخواته البنات، والانكسار الذي ظل يلازم أخاه.. كلّ ذلك حُفِرَ في عينيه.
عندما نضج قليلاً ورأى أخاه يعرج، أدرك معنى النكسة
وفهم نظرة الحزن والحسرة المسيطرة على عيون أبيه وأمه وأخواته
لكنَّ أباه كان دائمًا يستمسك بالأمل.. أن الرئيس لن يسكت، وأننا سنحارب وسنستعيد

أرضنا وشرفنا من جديد.
الأطفال كانوا يهرولون من الرعب إلى بيوتهم.. لكنَّ سليمان كان يسير بتحدٍّ، لا يهمّه همّ.
رأى الناس تجري باتجاه عزبة بحر البقر.. يقولون: إن الكلاب ضربوا مدرسة هناك..
فَقَدَ إدراكه بنفسه.. إذ أطلق قدميه حيث يهرول الناس إلى المدرسة
وهناك رأى الدم..
رأى أطفالاً مثله وسط دمار الموت تغرق في الدماء.
لم يهتزّ ولم يطرف له جفن
تفجّر داخله بركان غضب ورغبة في الثأر.
تمر السنون.. يكبر سليمان، ويلتحق بالجيش بعدما أنهى دراسة القانون
لم ينسَ ثأر أبناء بلده
لكن كيف والعدو صار صديقًا؟!
كيف والأرض التي ارتوت بدم الشهداء صارت مرتعًا للكلاب، بعد معاهدة شلَّت السلاح؟!
لا تهتمّ يا سليمان.. يومًا ما سترفع السلاح وتأخذ الثأر.
ها هي الفرصة جاءتك يا سليمان.. بعضهم يتقربون من منطقة حراستك بكل أمان
(ابتعد يا خنزير أنت وهو.. هذه منطقة عسكرية)
لا فائدة من الكلام!!
أنتم تجنون على أنفسكم إذن
طاخ طاخ
بطل يا سليمان... تسلم البطن التي حملتك
أخذت ثأر ولاد بلدك
لا يهم ماذا يحدث
لو حبسوك.. ستعيش مرفوع الرأس
ولو أعدموك ستصبح شهيدًا
الناس قالت عليك بطل.. واسمك تردد في طول البلاد
واتحفر اسمك يا سليمان في ذاكرة تأبى النسيان.
سلام على روحك يا سليمان

# وداعًا سرقسطة

**أنا ابنة سرقسطة مدينة الرسام جويا، والفيلسوف ابن باجه، دمي قطرات من نهر الإيبرو، لوني كما ربوع قلعة أيوب، وجهي نحت من عمارة قصر الجعفرية.**

---

أمضيتُ جُلّ النهار مع صديقتي باتريشيا نودِّع طرقات سرقسطة قبل رحيلي إلى الجنوب باكرًا، سرنا طويلاً بمحاذاة ضفاف الإيبرو نستعيد ذكريات عامين قضيناهما معًا بمعهد الفنون، طوّفنا بالأقدام بين قصر الجعفرية ومتحف جويا، وانتهينا بترديد ترنيمة داخل كاتدرائية لاسيو.

كانت باتريشيا شديدة السعادة تُضْفِي مرحًا على رحلتنا بعبثيتها وتمرّدها على كلِّ شيء.. والذي يتبدَّى صارخًا في ذلك التاتو المنحدر على ذراعيها العاريين حتى طمس لون بشرتها البلقاني.. وتلك الحلقة المعدنية البارزة في أنفها.. كانت سببًا في انفصالها عن صديقها ورفيق وطنها.. انفصال برّرته بأن عقل صديقها يشبه عقل أسقف كنيسة بوخارست، الذي شهّر بسمعتها لرفضها الانصياع لرغباته سرًا.

أتدري يا ساندرا كانت الفتيات يأنفن من الاعتراف على يديه مخافة التشهير بهن.. كن يؤثرن كتمان الآثام وما يُلحقها من أذى نفسي؛ كيلا يتعرضن لقسوته المفتعلة.

أتدري يا ساندرا لماذا تركت بوخارست وجئت إلى هذه المدينة.. سرقسطة.. رغم صغرها؟ لأنها تشبه امرأة عابثة تلهو بكلِّ متاع الحياة لكنها في ذات الوقت تستتر بأردية من طقوس وتقاليد وتاريخ مُوغِل في القدم.. تتنوع فيه الثقافات.. تتجاور فيه الأعراق بلا تعصّب..

سرقسطة مدينة مفتوحة القلب لمن يشتهيها..

أتدري يا ساندرا أنت تشبهين سرقسطة، كلاكما يعيش في ماضيه حتى النخاع.

غدًا يا ساندرا سترحلين عن سرقسطة وقلعة أيوب، وسأبقى هنا وحيدة للرقص

والشراب فهما ديني وديدني.. سأبقى هنا للرقص والشراب فلم تَعُدْ بوخارست تحتوي جموحي؛ لعلِّي أظفر يومًا بمن يرمِّم ما أصاب الروح من تشوّهات.

عدتُ إلى قلعة أيوب بعربة الخيول كعهدي الدائم.. أملأ بصري بالجبال السابقة ومزارع الكروم المترامية.. أُوَدِّع كل ألفةً بهذا الطريق وكل ذكرى علقت بخَلَدي..

وصلتُ إلى ضيعتنا، كان أبي منهمكًا مع مهندس الآفات يتفقدا الشجيرات المصابة وكانت زوجة أخي تتابعهما مسترقة النظر إلى المهندس.

طالعتني بوجهها العابس دومًا، والمحتفظ بجمالِ قشتالي قديم، غير أن مسحةً من الحزن تلازمه منذ وفاة أخي المفاجئ منذ سنوات، تاركًا إياها شابّةً يانعة وأمّا لطفلين.

بادلتها تحية ودلفت إلى داخل المنزل، تبعتني إلى غرفتي حاملة سلةً بها ثمرات تالفة، استلقيت منهكة على سريري.. باغتتني بهجوم:

أمَا كان أجدر بك يا ساندرا أن تبقي هنا تلقنين أبناء أخيك تعاليم الإنجيل وتخدمين في ملكوت الرب!

تطلعت إلى سقف الغرفة تحاشيًا لجدال يغوص في قيعان العصور الوسطى السحيقة، وكأنك يا أماندا تسكنين كهوف جبال البرانس منذ مئات السنين.

أراك يا ساندرا تجمحين خلف أوهام مَرَضيّة تسيطر على باطنك.. ولَكَمْ أخشى عليك من تماديك في هذا الطريق الذي أرى منتهاه إلحادًا وكفرًا بكنيستنا!

كانت دراستك للفنون وبالاً على إيمانك مذ أن تعلقت عيناك بنقوش العرب البالية على جدران قصورهم الخاوية، وهل يُعقل أن نُعلِّق قلوبنا بتاريخ العرب الذين استعمروا بلادنا لمجرد أنهم تركوا قصورًا ومآذن لا زالت باقية إلى اليوم!!..

يا أختاه أيّ فائدة تُرجَى من التنقيب في تاريخ ولَّى واندثر، إن قلعة أيوب اليوم لنا نحن الإسبان أحفاد قشتالة العظيمة..

ما أراك يا ساندرا إلا هاوية للمعرفة، لكن اعلمي أن للعلم أهدافًا وليس غايةً في ذاته، ولئن شئتِ ثقافةً عابرةً لَكفتك الكتب عبء الدراسة.

يا ساندرا هنا بين هذه الربوع تكمن حقيقتنا، هنا على هذا الصليب يكمن

تاريخنا... أفيقي قبل أن تنجرفين خارج ملكوت الرب، وتلحقك لعنة الكنيسة، وتنالين نقمة أبيك عليك..

لم أتمالك قدرتي على التحمّل وجدتني اعتدل في مواجهتها وأصيح..

يا أماندا لم أكن أدرس الفنون لا لإلحاد ولا لكفرٍ، بل لقيَم الجمال؛ تلك القيم التي تتجاوز جدران قصور المسلمين الذين تصرين على نَعْتهم بالعرب.. تتجاوز جدران الأديرة، إلى آفاق الإنسان الرحبة بلا عصبيّة أو عرقيّة، الفنون يا أماندا تراث للإنسانية جمعاء، هي رحيق الحضارات عندما تفنى الأمم..

يا أماندا: إن التاريخ ملك لنا جميعًا بكل ما يحتويه من ثقافات وآثار.. لا يملك عرق أو دين أن يُفْني آثار مَن سبَق.

إن عشقي للفنون نابعٌ من عشقي لأيقونات العذراء البتول التي تملأ المنزل.

إنني راحلة إلى الجنوب بحثًا عن الجمال.. في قرطبة وإشبيلية وغرناطة..

إن شيئًا ما بداخلي يناديني إلى هذي البلاد، شيءٌ لامسته هنا في اسم هذه القرية.. قلعة أيوب.. انظري يا أماندا.. لا زالت قريتنا تحتفظ باسمها العربي منذ مئات السنين..

ذاك الشيء يناديني من أعلى هذه الجبال؛ حيث تقبع آثار الحصن الإسلامي العتيق.. نعم أقولها دون حرج وبلا مواربة: لديّ أشواق تناديني إلى هذي البلاد.. وسأرحل لأروي ظمآي من هذا الحنين.

أغلقت أماندا الباب خارجةً، يعربد وجهها سخطًا.

احتوتني الغرفة داخل صمت عميق، شردت ببصري في اللا شيء.

أرنِّم في سريرتي أن يلهمني الله جادة الصواب.. عساي أحلِّق بجناحي إلى آفاق الحقيقة العصيّة.

# ذلك الشيء

لا ندري متى تغلغل هذا الشيء بين ظهرانينا
بَيْدَ أننا لا ندرك ما كينونته..
أهو مرض عضوي أم حالة نفسيّة أَلَمّت بأحدنا، ثم انتقلت بالعدوى إلى جميعنا؟
على حين غرّة بدأ يَحل الوجوم على الوجوه.. وراحت الأذهان تَشْرَد بعيدًا نائيةً إلى عوالم متفرقة..
بعد أن كنا صوتًا واحدًا، وعقلاً واحدًا، وقلبًا واحدًا..
صارت النظرات تخشى التصادم، نجتمع كعادتنا بالمقهى كل مساء، نحتسي الأشربة صمتًا.. لا مزاح أو مشاغبات، ولا حتى قرقعة النرد.
نتبادل الأخبار بلا وُدّ ولا حماس، نُنْصِت لبرامج التوك شو واجمين، وهي تُسَبّح بحمد الزعيم!!
نتسارع في الفراق قبل أن تَشِي وجوهنا بما تعتمل به الصدور..
ما من أحد أفصح عما يلحظه تجاه الآخر، فقط يظن المرء منا أن ذاك الشيء قد ألمَّ به وحده دونما الآخرين..
لذا انقطعت سُبَل التواصل.. تَغلغل كل شخص داخل دوامته، أحكم شدّ خيوط شرنقته الضيِّقة حول ذاته.
عندما تداعت مشاهد وصور الدم المُراق والجثث المتفحمة والمسجد المستباح أبدينا لامبالاة، وكأن الأخبار تسترسل من حلب وحماة لا من شوارعنا ومساجدنا!!
بالأمس فقط عُلِّقَ تنبيه (النقاش السياسي ممنوع).. فظننت أن السبب تحاشي تضارب الآراء وتصادم الأيادي.. فأَسَرّ لي النادل دون الآخرين أن مُخْبِرين هم من أقرّوا القرار، وأنهم يرشقون المكان بآذانهم وأبصارهم بحثًا عن ضحايا.
لا أدري هل علم الآخرون نفس الخبر أم لا؟

لا أجرؤ على سؤالهم...

لكن علام هذا الوجوم؟! ولِمَ هذا الشرود؟!

اليوم بالعمل.. كنا نتبادل الأحاديث باقتضاب، وفي الخلفية ترمقنا صورة الزعيم.. أحاديث باهتة لا تفاصيل لها.. مجرد ردود مسترقة.. تنتهي عند حدود اللا العلم والأنامالية.

ذاك الشيء البغيض.. بدأ يتغول بيننا كسرطان.. فهذا أحدنا يقوم بإجازة مرضية مفتعلة لسبب غير معلوم.. وأيضًا لم يجرأ أيّنا على سؤاله.. وأخرى طلبت النقل إلى إحدى الوحدات القروية لارتدائها النقاب!

سبقتهم إلى الخروج قاصدًا تلك النشرة المعلقة على لوحة القرارات الإدارية.. كان تزيلها تلك العبارة:

((وتأمل إدارة الموارد البشرية أن يكون جميع العاملين على قدر المسئولية تجاه أوضاع البلاد.. وإلا فإننا سنضطر إلى التزام الإجراءات الرسمية تجاه أيّ إخلال بالنظام.. وتؤكد الإدارة على تمسّكها بجميع العاملين، وحرصها على ألا تضطر إلى استخدام إجراءات تعسفية ضد أحد منهم)).

هذه المرة الأولى التي أقرأ المنشور.. فقط كانت تسريبات بين الجدران تحمل التهديد والوعيد..

تسللت إلى روحي نفس المشاعر التي تتسلل كلما رأيت ذاك الرجل ذا الوجه البغيض الذي حلَّ مؤخراَ بائعًا بأحد أكشاك الحي.. ولا نعلم عنه شيئًا غير أنه يرمق الغادي والرائح من السكان بعينٍ بوليسية تبثُّ الريبة في الصدور.

هو ذاك الشيء المقيت المسيطر على الوجوه في البيوت والمقاهي والأعمال، ولعله أيضًا غزا أسرّة المتزوجين..

ولِمَ لا فقد اعتُقِلَ جارٌ، وقيل إن ذلك كان بسبب حوار مفتوح بين زوجته وصديقتها على الفيس ذكرت فيه أن زوجها اعتكف رمضان بالميدان.

ولعل الآباء أيضًا قد أصابهم ما أصابهم من الشيء؛ فقد اشتكى أبٌ أحد أبنائه.. وبعدها بسويعات اختفى الابن ولم يُعثَر عليه بعدُ.. غير أن الأنظار اتجهت إلى

الرجل ذي الوجه البغيض الذي يرمق الرائح والغادي بعينين شذرتين.

بدا أن ذاك الشيء قد سيطر على الجميع وعلى كل شيء..

فالمحالّ ما عادت تفتح مساءً.. والأطفال أدمنوا الجلوس بالمنازل

ما عادت النسوة يتزاورن..

أهملنا المقهى...

مللنا العمل حتى بتنا نتمنى لو سُرِّحنا منه طوعًا.

محطات التموين والمخابز ما عادت تكتظ بالمتزاحمين.. ليس لوفرة، وإنما لهذا الشيء.

والمدرسون صاروا ودودين مع الطلبة الفاشلين.. حتى لو أصابهم الأذى من أحدهم.. لا يعنِّفه ولا يوبِّخه.

بل إنه يضحك في بلاهة، ويقول: أنا سعيد لأنك لم تكتب الواجب المنزلي.. وليس ضروريًا أن تستكمل البحث المطلوب منك!!

حتى الناظر لا يهتم لتلك الأمور.. كل أمانيه الوجودية أن يمر اليوم الدراسي على خير دونما دماء .....

هو ذاك الخوف لعله في طريقه إليكم.

## جيسيكا مرة أخرى

عزيزتي جيسي

تحياتي وأشواقي الحارة..

إنني جِدَّ حزين؛ لعدم ردّك على رسالتيَ السابقتين!!

فهل قطعتِ حبل الصلة بيننا.. حتى من تحية عابرة؟!

يرتد بظهره إلى الخلف.. مادًّا أصابعه إلى السيجارة التي أوشكت على الاحتراق..

يتأمل سحابة الدخان التي غبّشت أجواء الغرفة..

تطالعه الفوضى تضرب المكان

بقايا أطعمة على الموكيت، سرير مبعثر الفراش، روائح كريهة تنبعث من التواليت. تغفو عيناه عن الحاضر..

يهيم وعيه الباطن في ذكريات اللقاء الأول منذ سنوات:

خريف سربرينيتشا - البوسنة:

مذابح الصرب تجتذب المراسلين من كل أنحاء العالم.. اجتمعا في خندق واحد..

في ليلة خريفية دامية.. هو يسجل مشاهداته تحت بصيص أنوار الشموع..

يحاول التقاط صور للناجين والمصابين، بينما هي تتحرك بين الأجساد بدأب وحماس تضمِّد جراحًا.. أو توزِّع طعامًا.. أو تداعب أطفالاً عساها تُزيل ما تراكم في نفوسهم من آثار الرعب والدم..

تناولهم أقراص الشيكولاتة، وتحكي لهم عن بابا نويل الذي سيأتي عما قريب حاملاً لهم الهدايا.

بعد انقشاع ظلمة الليل.. التقيا بفندق المدينة... قدم لها نفسه: مراسل صحفي... دعاها لتناول النسكافيه الدافئ..

هي متطوعة بإحدى منظمات حقوق الإنسان ومناهضة التمييز.

طلبت منه أن يصحبها في جولة بالمدينة لمطالعة الدمار... فكانت فرصة أن

يتعرف منها على بعض من نشاطها السابق..

اختطفها رجال الهوتو أثناء حملة التطهير العرقي لقبيلة التوتسي في رواندا، ورأت مياه بحيرة فيكتوريا تتخضب باللون القاني.. دفعت سفارتها الفدية، وأرغمتها على الرحيل عن منطقة الصراع.

ثارت أمام السفارة الصينية، وشاركت في اعتصام مفتوح ضد مذبحة تيان مين.

شاركت أطفال الصومال الجوع، ودخلت في إضراب عن الطعام حتى وصلت إمدادات المجتمع الدولي.

بَهَرَه شجاعتها وجرأتها في خوض مناطق النزاع والصراع.. وانتصارها لقضية الإنسان المُعَذَّب أينما كان.

عند أطلال المدرسة المنكوبة وقَفا يجتران آلام ظلم الإنسان لأخيه الإنسان.

جذبته دموعها التي فاضت وهي تشاهد الدماء تُلطِّخ الأبنية..

تسللت إلى قلبه مشاعر تقدير لروحها المشبَعة بالإنسانية.

تعود أصابعه إلى لوحة المفاتيح.. تتوتر بينهما سيجارة مرتعشة:

- هل تذكرين يا جيسي يوم أن قام الصرب بترحيل جميع الأجانب من سربرينيتشا على حين غرة!

بحثتُ عنك في كل مكان ولم أعثر عليك.. ولولا تبادلنا للعناوين الإلكترونية لكنتُ أصبتُ بهستيريا...

لم؟ لا أدري!!

فلم أكن أعرف بعدُ أن تعلُّقي بكِ ورغبتي في ملازمتك صارت عاطفة تجذبني نحوك.

وتباعدت بيننا المسافات جيسيكا.. ونحن نتراسل عبر الفضاء الإلكتروني، واكتشفتُ أنه بينما أكنَّ لك مشاعر حبيبٍ عاشقٍ.. لم أكُن أمَثِّل لك سوى صديق تتبادلين معه الأخبار والآراء.. فآثرتُ أن أحتفظ بأحاسيسي سرًا؛ كي لا أخسرك.

هل تذكري جيسي.. عندما واجهتك ذات محادثة، وقلت: إن هنا في بلادنا أناسًا يُقتلون ويُشَرّدُون ولا يتحرك لهم ضمير حركاتكم.. رَدَدْتِ بقسوة جيسي.. ولولا ثقتي بعدم وضوح الرؤية لديك لاتَّهمتك بازدواجية المعايير.. بل والعنصرية أيضًا.. إذ قلتِ: إننا في الشرق استبداديون حتى النخاع.. من إدارة البيت إلى إدارة الدولة.. وأننا نحيا في ظل أيديولوجية تاريخية تُقْصِي الآخر وترفض التعايش معه..

وقتها لم أشأ أن أتمادَى معك في هذا الجدل الحضاري.. فختمت نقاشنا بأمنية ذات مغزى، وهي أن تكون سربرينيتشا أسعد حظًّا الآن من الشرق.

.....

بعد تلك المناقشة الأخيرة انقطعت بينهما التواصل.. كان يرسل الرسالة تلو الرسالة ولا مجيب.. لكنه كان على يقين بأنها تمارس نشاطًا ما على الكرة الأرضية.

مضى عام لم يتلقَّ منها حرفًا واحدًا.. وأثناء محاولة يائسة منه للعثور على خيط يَصِله بها.. وجد صورتها تُطِل على الموقع الرسمي للمنظمة التابعة لها وهي تحتضن طفلاً عربيًا في مخيمات الجنوب اللبناني.

كانت فرحته تلك اللحظة كما الطفل الضالّ وهو يرى أُمّه أمامه بعد طول فراق.

استطاع من خلال الموقع الحصول على عنوانها، وأرسل لها خطابًا بريديًا، وأعلن لها صراحةً عن تَتَيَمهُ بها منذ اللقاء الأول داخل خندق سربرينيتشا.

ردت عليه بكلمات مقتضبة.. تُقَدِّر له مشاعره، وتتمنى له التوفيق..

مدَّد زراعيه في الهواء نافضًا خمول الكسل.. تناول كوبًا من الماء.. أعاد إشعال سيجارة.. ثم تمدد على السرير.. أرخى جسده.. أمسك بصورتها.. صار يتأملها ودخان السيجارة يتمايل أمام عينيه.

# ديار

ها هو الموت يقترب رويدًا رويدًا
تسيرُ وسط جموع المشيعين مُنَكَّس الرأس
تستجمع مشاعر الإحساس بالحزن والفقد
تفتح زراعيك مُرَحِّبًا
هلم أيها الموت إليّ
على المشارف تطل شواهد القبور
والأيادي ترفع المصابيح
أصوات الأقدام المتسارعة من الأمام ومن الخلف تصنع ضجيجًا مكتومًا.
أستشعرهُ يُلاحقني...
من أين ستأتيني أيها الضيف العزيز
تراك تنتظرني هناك عند ذاك القبر الذي يضم آبائي!!
خطواتي ثقيلة، لعله الخوف من ذاك المجهول
فجأةً تتصايح الأفواه.. معلنة الوصول إلى دار القرار
ندلف إلى حَوَارٍ ضيقةً بين قبور مهيبة وسط الظلمة
أتُراك يا عم إسماعيل ستخبو في أحدها؟
ستمضي إلى الدار الآخرة الآن منفردًا، في وحدة وصمت
تدفعني عيناي إلى أحد القبور المفتوحة.. ظلمة كالحة ورمال ساكنة
يُحَط الرحال ويُوضع النعش على الأرض
يخرج جثمان عم إسماعيل ساكنًا
تُراك يا عم إسماعيل تَشعُرني الآن ولا أشعرك
تسمعني ولا أسمعك
لعلك تراني ولا أراك

يحمل الجثمان على الأكف مستسلمًا
يُولج إلى القبر راضخًا
أمدَّ عنقي إلى الداخل.. أودِّعك يا عم إسماعيل الوداع الأخير.
بالقبر ألمح الموت شاخصًا..
جثتان في الأكفان باديتان
من بين الرمال بارزتان..
تُرَى كم من الزمان مَرّ بهما؟
وبأيّ الأحوال تقلبا؟
رحماك إلهي..
أتممتم بالدعاء وأرتل (يس)
يُصك الباب أخيراً.
العزاء قاصر يا سادة على شهود الجنازة.. ينادي منادٍ.. معلنًا انتهاء المراسم
ألقي نظرةً أخيرة.

أعبر الجسر الصغير الفاصل.. بين عالم الموتى وعالم الأحياء
أعود إلى الشوارع الحية... أصوات وأضواء ودنيا عابثة
أدلُف إلى البيت، يلفُّني الصمت
تمتد يدي بلا إدراك نحو الريموت أتنقل بلا وعي بين القنوات...

# أربعينية

الأشجار تهرب من عينيها عبر نافذة الباص؛ ذكَّرتها بالأيام التي تمضي من عمرها مهرولةً دون ضابط.

همست لنفسها: أحقًّا لا زلتُ قادرةً على العطاء؟

انتبهت إلى زميلتها.. جالسةً تطالع كتابًا. لم تَرَ وجهها منذ أيام..

كان ذلك في آخر زيارة لها إلى بيتها.. تستر وجهها عن الناظرين بنقابٍ تأبى أن ترفعه أثناء أوقات العمل.. حتى في لحظات انفرادهن معًا دون الرجال.

مازالت تحتفظ بنفس النضارة التي عرفتها بها منذ التحقا سويًا بالعمل قبل أعوام.

تختلس النظر إليها.. إنها تكتحل... لكأن النقاب لا يمنعها أن تستشعر جمالها وترعاه!

عادت تطالع المسافات الهاربة عبر النافذة أثناء الإياب إلى البيت.. تخجل أن تصارح نفسها بما نالته من تأمّل لزميلتها وصديقتها المقربة..

سرت في عروقها نشوة فتاة مراهقة على أعتاب الأنوثة..

ودَّت لو تحلق بجناحين في السماء من فرط الفرحة التي أَلَمّت بها.

ودَّعت صديقتها.. أسرعت بخطًى مرتبكة إلى البيت.. حيّت أمها.. أوصدت باب غرفتها..

اتجهت إلى المرآة..

تصطدم عيناها بالزغب الأبيض النابت بين سواد شعرها.. خمدت جذوة الفرحة.. هبطت إلى واقعها..

ليست المرة الأولى التي تُواجه نبتات خريف العمر.. فهي منذ ولجت قدماها إلى سنوات اليأس تحيا في قَلَق دائم يؤرِّقها ليل نهار.. تبثه نظرات المطالعين لها بالعمل أو الحي ممن عاصروا شبابها البائد..

بعد طلاقها كان عليها أن تلتزم محاذير الوضع الاجتماعي الحساس.

كانت في ذروة شبابها تروح وتغدو طليقة الشعر.. الآن تلجمه برباط يُكوِّره أغلب الوقت.

كانت تزهو بقوامها فتسير مفعمة بحيوية الشباب ونضج الأنوثة..

الآن مضطرةً لاستبدال ملابسها الضيقة بأخرى فضفاضة طويلة..

كما أنها تدفع دومًا رغبة مُلِحّة لإضافة المساحيق إلى وجهها.

تبدَّى سؤالٌ مُلِحّ على خاطرها:

أسرعت إلى هاتفها.. بادرت صديقتها بالسؤال:

لماذا تسترين جمالك بالنقاب؟

أتاها الجواب حاسمًا:

الأنثى السوية تَمْتَنّ لنظرات الإعجاب في عينيي زوجها، وليس في التهام الذئاب لها.

لم تتمادَ معها في النقاش؛ إذ أدركت أن الفراغ الذي يعربد بعواطفها سيفضح هواجسها.

استلقت على السرير.. هامت في تأمل صورة على الحائط لعاشقين يتأملان لحظة الغروب في هيام.

تراءى لها زميلها الذي تقدَّم لها اليوم طالبًا للزواج.. عاودها السؤال ثانيةً:

وهل حقًّا لا زلت أنثى مرغوبًا بها؟!

لم تهتم أن تسأله عن تفاصيل حياته الخاصة كما تفعل أيّ أنثى.. ولم تحرص على تفنيد أسباب فشل زواجها الأول وعزوفها عن تكرار التجربة طيلة السنوات الماضية!!

فقد ألجمت المفاجأة تفكيرها..

ها هي اليوم وبعد أعوامٍ طويلة ترى أنوثتها التي مالت إلى الغروب علقت بقلب رجل، وها هي رغم الأربعين خريفًا بإمكانها البدء من جديد كأيّ فتاة عشرينية.

نهضت من السرير منتشيةً.. اتجهت إلى الدولاب.. أخرجت صندوق زينتها القديم عادت إلى المرآة..

كست شفاها بلونٍ أرجواني متوهج.. قليل من البودرة البرونزية على الوجنتين...

بحركة ثورية جذبت ربطة الشعر... حررته من تكوّره

وقفت أمام المرآة مزهوةً بإشراق حسنها من جديد..

انتبهتْ إلى أنها لم تَبُتّ في الأمر بعدُ..

إنها حتى لم تُبِح به لصديقتها ومستودع أسرارها الأمين !!

لم تستشرها !!

وماذا عن أمها.. إخوتها.. جيرانها.. هل يقبلون أن تستأثر لنفسها بلحظات من الحب فيما تبقى لها من عمر؟!

أطرقت إلى الأرض.. عادت تُطالِع المرآة... تأملت نبتات الشعر الأبيض.. رفعت أناملها

تتحسس شفاها
عادت إلى السرير... أرخت رأسها إلى الوسادة..
أغمضت عينيها على دمعاتٍ انسابت بانكسار.
تراءى لها مشهد الغد، وهي تعلن للزميل قرار الرفض.

# حرْث الدُنيا

قد بدا له وهو يشاهد سور البيت سامقًا، أنه صار في عزلة عن عوالم البشر بالخارج.. قد امتلك خصوصية ذاته، ونال استقلال إنسانيته..

فانبرى إلى خلايا نحله وعشَّش طيوره وأحواض زهوره..

تمضي به النهارات لا مُنَغِّص لها..

وفي المساءات يحمل حفيده رغمًا عن أمّه لساعات على حجره متنقلاً بين فضاءات التليفزيون، فإذا ما اعتراه الملل حمَل حفيده إلى صومعة كتبه، يشير إليه باسم كل كتاب، وكأنه يرضعه لبن الفكر!

ثم يذهب به إلى خزانة الذكريات في مكتبه العتيق، يخرج الصور التي يغلبها الأبيض والأسود.. هذه جدتي وأمي، وهذه صورتي عندما نلت الثانوية بعد أن كان اسمها البكالوريا.. وهذه الصورة المغبشة المتهالكة هي كل ما بقي لي من ذكريات أبي.

يجلس على الأريكة التي بقيت من صالون بيته القديم يغفو رغمًا عنه.. تأتي زوجة ابنه فتحمل الحفيد عنه ثم تهزه قائلة ((كفاية سهر))

يستند إليها إلى حيث يرقد الجسد الواهن.

يغوص في ثبات.. ترتحل خيالاته.. مع أم محمود شريكة عمره، قد سبقته الرحيل

- متى يجمعنا اللقاء، أشقاني الغياب -.

تتحرك شفتاه وهو يغطُّ في أحلامه، محمود صار قاسيَا قليلاً، ولولا رأفة زوجته بي لكنتُ طردته من أيامي الباقية، أشفق عليه من توغُّله في الحياة وانغماسه في دروبها الموحلة وأنيابها الحادة، لم يَعُدْ يشعر بي، بل إنَّ بعض تصرفاته أحيانًا تبدو وكأني صرت عبئًا عليه..

أتجاهل ذلك وأطيِّب خاطري بحفيدنا عليّ.. لم يعد لي بالوجود سوى ضحكته البريئة في وجهي.

كثيرًا ما يتصل به أصدقاء قدامى، يسألون عن أحواله ويطمئنون على صحته، يدعونه للتزاور..

لكنه يأبى الخروج من صومعته وكسر الحصار الذي ضربه حول نفسه.. يأبى أن تتبدد عزلته الاختيارية..

يرى في الحياة خارج أسواره لوحة سريالية تخطها أصابع الأفَّاقين محترفي الدنيا..

علَّمته مسيرته أن للحياة فنونًا لا يُتقنها إلا الأفَّاقون.. فهي جنتهم.. وأما أمثاله فغرباء.. تلفظهم النفوس وتزهدهم الوجوه.. فيبقون على قارعة الحياة كعابري سبيل، يشقون بأحلامهم المثالية وتعاليهم عن دنايا الدنيا والبشر.

لكن محمود الذي ربّاه على الترفُّع ينغمس انغماسًا أعمى في دوامة الحياة..

لا يقنع منها بحدِّ الكفاية، إنما يغوص في دوامة عنيفة من الطموح المادي والسلطوي، وفي سبيل إشباع نهمه يطيح بكل قيم وأصول..

محمود انقلب إلى النقيض مني ولا أدري هل غاليتُ في حمايتي له حتى انقلبت للضد! أم أن سطوة الواقع وقوانين الوجود أقوى أثرًا؟!

لقد ولج سبيل الظلم ولأشد ما أخشى أن تصطبغ أنامله بالدم الحرام.

يتكلم كثيرًا عن مؤامرات كُبرى ولا بد أن تُضرَب بالنار كي لا تشتعل البلاد بالفتن.

أكاد أوقن أنه يسير إلى هلاك لا محالة، إنه حَدْسي الأبوي.

اختار هذا المصير رغمًا عني.. يوم أن رفَض دراسة الهندسة، وآثر القوة والثراء من حيث لا يدري.

أحيانًا يصير مُخيفًا وهو يتحدَّث عن أعداء الداخل، فأشعر بالخوف منه لا عليه.. فلا أطيق النظر في عينيه.. حتى زوجته تبدو نافرة.. شقيّة بالعيش معه..

في صلاتي أكثر الدعاء له عسى أن يُوهَب نور البصيرة، ويُكْفَى شرور ذاته..

ها هو أذان الفجر يشقّ سكون النيام..

تَدُبّ في جسده طاقة روحانية تقاوم وَهَن السنين، تواجه عبث الحياة وتهافتها، ترنو إلى مقامات الآخرة..

يلقي جبهته ساجدًا عند عتبات الرحمة والتماس الغفران.. يبذل التبتل في محراب الشوق لربٍّ حنَّان مَنَّان.. هو وحده أبديّ في هذا الوجود وما عاداه إلى زوال، مبتدأ الأمر ومنتهاه، إليه ترنو قلوب المشتاقين.. وتتجرد له الأرواح.

دخلت عليه زوجة محمود حاملة له فنجان الصباح.

كان وجهه مغرقًا في الدموع.

قالت في صوت متهدج، وقد هالها ما كان عليه من انكسار:

- هوَن عليك يا أبتاه، ما كان قد كان، في ذمة الله، وما هو آتٍ قد سبق في علم الله.. لا خلاص منه، فارْضَ بقضائه ولا تأسَ على نفسك.

عندما شقت الشمس جبهة السماء عنَّ له أمرَ ما، أحضر فأسًا صغيرًا وانهال على سور البيت العالي، حتى بانت له وجوه الحياة، هبط من برجه العاجي.

صار يُسَلِّم على الغادي والرائح، ويداعب الشباب، راح يرتب زيارات للجيران، ويدعو مَن بَقِي من معارفه للتواصل. بات يشعر أن أيامه لها طيف يهيم من جديد على عالمه.

لم يعد يخلو البيت من مُريدين، وصار الحفيد يحبو بين الأقدام.. يحمله بينهم كأملٍ جديد.

صارت له شهرة في محيطه، وأكثر الناس من نصائحه، والأخذ برأيه وبات مرجعًا للحائرين.

والتف حوله نَفَر كثير، فحامت حوله المخاوف، وجاء تقرير أن يُخْرَس اللسان، فجاء نذير بالخبر، إما الصمت أو الاعتقال.

كان محمود النذير، رُتَبه مهدَّدة ومصالحه في خطر.

يقف الرجل بشيبه الوقور بين ضيوفه هاتفًا:

هذا ابني، جاء يساومني على كلمة الحق من أجل سلطان جائر وعَرَض زائل.

أما وأني قد بلغتُ من العمر أرذله، فلا حاجة لي لنفاق، ولا خوف لي على قوت.

أما وإن للحق رجالاً، أما وإن للحق ثمنًا، فإني أشهدكم أني بريء من ابني هذا.

ثم جلس يتلو قول الله -تعالى-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ} [التغابن: ١٤]، صدق الله العظيم.

## أشواقُ طائر

كانت السعادة تغمر قلبي..

أرى قبح الوجود قد استحال جمالاً.. فلا زحام ولا ضوضاء

ولَكَمْ كنتُ أكره السير في طريق الكورنيش، رغم عشقي المجنون لأمواج البحر وزَبَده المتألق تحت إشعاعات القمر في ظلمة الليالي الصيفية الرقيقة..

أنطلقُ بالسيارة جامحًا يدفعني حماس ونشوة منتصر في معركة لم تكن متكافئة بأي حال، كنت أتحدى فيها قوانين العقل وحقائق الوجود يدفعني إيمان وثقة لا تلين بتوفيق الله..

كنت قد أخبرتها أني ذاهب إلى مكة لأداء عمرة قبل القيام بإجازتي السنوية.

كانت قبل ذلك طلبت مني بعض الكتب المترجمة إلى الإسبانية عن تاريخ الأندلس! دُهشت..!!

إذ كيف لإسبانية لا تعلم عن حضارة الأندلس شيئًا.. ظننت أنه ربما كان مرجع ذلك لزهدها في القراءة..

بَيْدَ أنها فاجأتني أن حالها كحال غالبية قومها بسبب التعتيم على كلِّ ما يتعلق بالحقبة الإسلامية لبلادها في كتب التعليم والمواد الإعلامية والثقافية..

كنتُ قد سلمت السيارة عهدتي إلى السفارة، وأنهيت كل متعلقاتي المالية إيذانًا بالرحيل إلى الأرض المقدسة، ومن ثم إلى بلادي القابعة بين أمواج المحيط الهندي في أقاصي جنوب شرق آسيا..

رنَّ هاتفي برقمها (ساندرا).. أيتها الأوروبية الحسناء التي أوجعت القلب..

ماذا تريدين وقد قُطِعَتْ صلة العمل بيننا إلى حين..

اتركيني أهرب منكِ بين غابات النخيل الاستوائي عساي أشفى منك..

لا أظنها قد شغفت بحكايات تاريخ الأندلس وهي الأحرص على حضور قداس الأحد باستمرار..

أمسكتُ الهاتف بين وجد العاشق المتلهف وبين خجل السائق الآسيوي من

أوروبية تعمل بسفارة بلادها..

أتاني صوتها هادئًا كأمواج الخليج تتهادى على أنغام سيمفونية رقيقة..

لَكَمْ أخشى من إيزابيلا الدفينة بداخلك يا ساندرا..

- مجيد الله أريد الذهاب إلى مكتب توعية الجاليات..

*---------

- أنت فقط من أثق فيه، وأعتمد عليه...

*----------

- سأنتظرك الآن...

هي تعلم أني قد سلمت السيارة الخاصة إلى السفارة، ومع ذلك تطلبني كي أذهب بها لهدفٍ ما..

لكنها لا تقصد السيارة بل تقصدني أنا مجيد الله تحديدًا.

الحقيقة إنها كانت شديدة الحرص في أحاديثها معي، حتى عندما طلبتْ مني بعض الكتب الإسلامية بلُغتها..

كان عملها الدبلوماسي ينعكس على سلوكها وتعاملها مع الجميع..

لكنها الآن تتخلى عن هذه الدبلوماسية وتتحرر من حيادها معي..

لم أشأ أن نستقل تاكسي.. حفظًا لمكانتها الوظيفية..

استعرت سيارة خاصة لصديق.. وصرت أبتلع بها شوارع مدينة الكويت المكتظة وقد شارف الدوام الصباحي على الانتهاء..

تلاقينا حيثما اتفقنا...

صرت أقود السيارة بعينين يقظتين وعقل شارد..

أتراك يا ساندرا تفعلينها.. وتنخلين عن إيزابيلا المتلبسة بذاتك؟

لم أشأ مصارحتها بما يدور بخلدي من تساؤلات.. ولا أن أستفهم منها عن مُرادها من مكتب التوعية..

لعلها رهبة السائق الفلبيني المسلم والدبلوماسية الأوروبية النصرانية.

يومًا ما كنت يا إيزابيلا أقصد يا ساندرا تحكمون بلادنا.. بل إن اسم وطني

اشتُقَّ من ملكم فيليب.. وصرنا قرناء بتاريخكم الغريب عنا.. هيييه يا ساندرا..

غير أن ساندرا أبت أن يظل جدار الصمت بيننا قائمًا؛ إذ هتفت بنفس هدوئها المعهود ودون تخلٍّ عن دبلوماسيتها الرقيقة... متى ستسافر إلى مكة..!

تطلعت إليها من مرآة السيارة وهتفت... غدًا صباحًا..

ابتسمت في صمت وعادت ترقب شاطئ الخليج المتلألئ تحت شمس الظهيرة..

تشجعتُ قليلاً فقلت محاولاً استدراجها للحديث..

هل تعلمين أن حيًا هنا يسمى غرناطة!!

هزّت رأسها دون أن تنبس بحرف..

عرجنا من كورنيش الجهراء إلى داخل الحي الراقي، وهناك كان فرع مختص بالجاليات الأوروبيّة تحديدًا..

لم أعد أحتمل الصبر.. فقلت: ساندرا هل انتويت اعتناق الإسلام؟

بابتسامتها الثابتة الخالية من تكلُّف نظرت إليّ وقالت وهي تتأهب للنزول..

بل جئت لأبحث عن رخصة لزيارة مكة؟

تضاربت المعاني برأسي، واختلط عليّ الفهم..

لكنها لم تتركني نهبًا لحالة التيه تلك فبادرتني...:

لا يزال بحثي طويلاً ولن أتخلى عن مسيحيتي لمجرد أن المسلمين تركوا ببلادي قصوراً ومآذن عظيمة.. لكني أصدقك القول يا مجيد الله؛ بداخلي هاتف يشدني لزيارة مكة.. تلك البقعة تهفو إليها قلوب المسلمين.. هاتف يتسلل إليّ مع صوت الأذان المتردد في أرجاء المدينة كل حين..

يتوغل إلى شغاف قلبي مع استماعي لآيات القرآن تُتْلَى أثناء الصلوات..

غير أن المدى طويل يا مجيد الله؛ فلتدعُ لي ربك أن يمنحني اليقين وسكينة الروح.

تركتْ السيارة مودعةً إيايّ وعيناي ترافقها في خطوها حتى دلفت من باب مركز التوعية.

أدرت السيارة متمتمًا برجاء لرب العباد أن تنفتح روحها لأنوار الإيمان.

## حدوتة عبد الجبار

ياه يا عم عبد الجبار
لا زلت صابرًا، في الدنيا تكافح
لا قلت آه، ولا ظهرك انكسر
المعيشة حولك انحدرت
والنفوس تغيرت
والوجوه صار لها ألف لون
حتى الأبناء.. ما عادوا نفس الثوب
جمال تلهى في أشغاله
ومحسن البنت خطيبته أنسته عقله
حتى البنت الوحيدة، من حلاوتها تحس نفسها هانم
وغير راضية بالحال
أشعر بك والله يا عم عبد الجبار
حينما أراك كل ليلة قاعدًا بعد العشاء
وحدك مع نرجيلتك
الغربة تكويك بعد غياب الأحباب
أم جمال.. (ست الستات)
ومنصور أخوك ذراعك الذي انكسر
والحاج رشيد صديقك الصدوق
أخذهم الموت
انكسر قلبك عليهم
صرتَ تعد الأيام

....

قالوا لك: سعر شكارة الملح زاد
قلت: الله المستعان.. يكفيني قوت العيال
قالوا لك: بع أرضك واشتر راحة البال
(دا المية شحّت خلاص)
قلت مهما صار.. الأرض عِرضي حتى الممات
قالوا لك: المعيشة صارت نارًا
قلت لهم: استغفروا رب الأرزاق

قالوا لك: لماذا تسير ضد التيار؟
قلت لهم: جلدي وما أغيره مهما صار

حلمك يا عم عبد الجبار ترى أولادك في أحسن حال
لكن يبعدوا عن السياسة والقيل والقال
(مالناش فيها.. دي بتاعت الناس البهوات)
أما إحنا.. بنعيش اليوم بيومه يا ولداه

جيش بلدنا وطني ولازم نبقى معه
نرضى بحالنا.. وفي يوم سينصب الميزان
سنُحاسب والكل سيأخذ جزاءه
دُنيتي في أرضي، راضي بحالي ورزقي على الله
وأهي عيشة واتحسبت عليك يا عم عبد الجبار

# من القاتل؟

كنا نجلس سويًا متجاورين...

نحدق في شاشة العرض..

من فرط تأثرنا بما حدث للبطل انساحت دموعنا دون أن نشعر..

غاب كلانا عن الواقع وتوهمنا أننا نفس البطل..

نسينا من شدة تأثرنا أكياس اللب والترمس، فتناثرت على الأرض وسط ظلمة وارت أنظار المحيطين عنا...

شعرت بلطمة كف على صدغي

تخللت مسامعي صرخة مكتومة لصديقي إثر لكمة على ظهره.

لا يَبدو أن أيًا من المحيطين أدرك ما يحدث لنا...

صرختُ بصوت تقطعه آهات: يا من تشاهدونني مدوا أيديكم أنقذوني..

ما لكم! أولا تشعرون بي؟

رأس صديقي ارتخت على كتفي.. أَفَقَدَ الوعي؟

أعود أستصرخ المتفرجين مرة أخرى...

هيهات أن يستجيب أحد...

دقَّقت النظر وسط الظلمة حولي..

يا الله جميع الوجوه واجمة!!

ليس هذا فقط، وإنما تسيل منها الدماء...

ملتُ على من هو أمامي متوجسًا.. هتفت: ماذا دهاكم.. من فعل هذا؟!

نظر إليّ نظرةً طويلة مكتومة تتخللها عبرات بعينيه، رفع سبابته إلى فراغ الظلام.

لم ينبس بحرف ثم استدار مرة أخرى إلى شاشة العرض.

عدتُ إلى صديقي.. فإذا به أيضًا يرفع سبابته في فضاء الظلمة محدِّقًا في

الشاشة.

دفعته عن كتفي..

انتفضتُ من مجلسي..

صرخت: من أنت أيها الطيف المراوغ؟!

تردد صدى صوتي بين جنبات القاعة متداخلاً مع صوت البطل الذي كان يلفظ أنفاسه الأخيرة إثر طعنة في القلب نافذة.

انقشعت الظلمة فجأة..

أضيئت الأنوار معلنة نهاية الفيلم..

انتابتني صعقة عندما رأيت الكراسي خاوية من الأجساد..

أدركت أن كل الوجوه الواجمة المدمية كانت لأشباح بلا جسد.

وقف رجل يشيح بيده بإلحاح: يا سيد.. يا سيد العرض انتهى!

أمسكتُ بذراع صديقي

سرنا وكلانا صامت...

فقط يتردد سؤال مبتور: من قتل البطل؟!

# الكرة على سطح حارتنا

لما كانت حارتنا لا تصلح للعب الكرة.. اقترح يوسف أن نصعد إلى سطح بيتهم الواسع...

الحارة عرضها ٨ أمتار، وكلها مطبات..

كانت تناسب اللعب في صغرنا، فلم تكن الأقدام تقوى على الإطاحة بالكرة إلى زجاج النوافذ، وكنا نستجيب سريعًا لزَجْر الأهل والجيران بسبب الضوضاء.

المرة التي تسببت الكرة في أزمة داخل الحارة كانت عندما أصرت أم الولد يحيى أن يلعب معنا رغم صِغَر سنّه.. إذ لم يتجاوز الأربعة أعوام بينما كنا نحن نسير إلى الثمانية.

هتلعبوه ولاّ أجيب طشت ميه وأغرق الشارع؟

وهكذا لعب يحيى رغمًا عن أنوفنا.. صرنا نحاذر الاصطدام به، أو نوجه الكرة نحوه..

غير أنه كان شغوفًا بتحدينا وإثبات قدرته على مجاراة قوتنا ومهاراتنا.. فصار يتقدم إلينا بهجوم عنيف غير مبالٍ بإصابة محتملة، حتى أجبرنا أن نترك له الكرة خشية الاصطدام..

وهكذا تلقف الكرة، وراح يركض بحماس وهمة.. وفجأة تعثرت قدمه في نتوء حجري صغير بالأرض وسقط على وجهه..

كان نصيبه سنّة مكسورة وشجّ بسيط بجبهته.

أما نحن فَرَحًنَا نجري في كل اتجاه هربًا من أم يحيى التي خرجت من بيتها مذعورة على صراخ ابنها.

ومن بعد الواقعة.. صار لعبنا بالحارة مخاطرة كبيرة يُحسب لها حساب، ويتم التخطيط والترتيب لها مسبقًا، كأن ننتهز فرصة غياب الأستاذ عبد الخالق في العمل لفترة مسائية.. أو تهديد الواد يحيى بإصابة أقوى وأخطر من الأولى إذا أصرّ على اللعب معنا.

بعد سنوات قليلة كنا على موعد مع حدث عظيم غيّر لنا وجه الحياة بمعنى الكلمة.. فقد تبرع أحد رجال الأعمال بإنشاء ساحة شعبية لأبناء الحي لممارسة الرياضة.

وهكذا في أقل من أسبوعين صار لنا ملعب رياضي معترف به تحت سلطتنا..

ورغم سيطرة الشباب الأكبر سنًّا عليه إلا أننا استطعنا أن ننتزع لأنفسنا مساحة بأحد الأركان لا ينافسنا عليها أحد.

ومضت سنوات قليلة ربما مدة الدورة البرلمانية التي قضاها رجل الأعمال نائبًا عن الحي خلالها.. وإذا بنا نستيقظ على لودرات تُزيل أسوار الساحة والمبنى المقام داخلها، وتطحن نبتات النجيلة الخضراء.

وكان الكلام أن صاحب الأرض سيستردها ليقيم عليها مجمعًا تجاريًا أو برجًا سكنيًا.

الآن يحيى صار من ذوي العشر سنوات وعضوًا رئيسًا في فريقنا.

ونحن الآن نقف أمام أنقاض الساحة، وخلفنا الحارة الضيقة وبيوتها المتهالكة نهرول إلى منزل يوسف.. نركض السلالم ركضًا إلى السطح..

## ومضة روح

على الرصيف وقف ينظر إلى سيل السيارات المارقة دون انقطاع..

يفتل شعيرات الشيب الناتئة على ذقنه، وفي عينيه شعاع يبرق إلى الرصيف المقابل..

هناك أسفل المظلة تنتظره..

كيف يَعبر إليها وهذا الطوفان من المركبات لا ينقطع؟

أقرب معبر علوي على بعد ١٠٠ متر، لكنه لا يملك صبرًا...

ماذا لو جازف واقتحم نهر الطريق غير عابئ بخطر أن تصطدم به سيارة!!

سيقفون له.. لا محالة!!

انتصب واقفًا.. نزل بقدمه اليمنى..

أتته سارينة منبهة... لم يعبأ.

نزل باليسرى..

ارتفع صراخ كاوتش إحداها يحتك بالإسفلت الملتهب في سعي لتلافي الاصطدام المؤكد.

لم يَبْدُ منه اكتراث.. تمادى في السعي، صار في قلب الطريق..

السيارات المارقة تحوطه، لا يعبأ للصياح ولا حتى يثنيه السباب..

حتى وقع المحذور...

مُلقًى على الرصيف المقابل، ينزل الدم من جبهته بارقًا تحت أشعة شمس الظهيرة.

وآلام بظهره تشي بقوة الارتطام بالإسفلت..

لا يعنيه الدم المنساب ولا آلام الظهر.. فقط جلّ همّه أن يرفع رأسه إلى هناك.. فقط يريد الاطمئنان أنها لا زالت هناك باقية... في انتظاره.

لا يفكر كيف سينتصب واقفًا مرة أخرى على ساق ملتوية، ولا كيف سيستقيم الظهر الذي أصابه شرخ...

ولا كيف سيواجهها بملابس صبغتها الدماء...

أستجمع ما بقى من طاقة بأوصاله..

رفع رأسه قَدْر ما استطاع إلى هناك.. حيث كانت تجلس تحصي الثواني والدقائق تحت المظلة.

دقَّق البصر.. حاول الإمساك بخيط الزمن الذي انقطع منذ دقائق...

فإذا به يُحدِّق في فراغ مظلم صامت.. إلا من دقات ساعة حائط...

تحسس بيديه المحيط.. كان الفراش بارداً والنافذة تعبث بها رياح خريفية.. مشرعة على سماء لا وَمْض فيها.

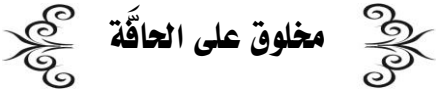

## مخلوق على الحافَّة

بكت كثيرًا

لم يكفها ساعةً تَسحّ الدمع

أيتها البنوتة الصغيرة! يا ذات العقل المتجاوز لحدود سنواتك الطفولية.. ماذا دهاك؟!

أغلقت باب حجرتها التي تمتلئ جدرانها بالرسوم الكرتونية المحببة.

جلست على سريرها الصغير، دفنت رأسها بين ركبتيها..

الأم: أحضرت لك كوب الفراولة التي تعشقينها.

ترفضين!!

لا تكترثين لإلحاح الأم، بل لا تبالي لتطمينها لك!!

لماذا يا صغيرتي؟

سيؤوب أبوك عصرًا وتخرجان إلى الحديقة.. ستمرحين ما شئتِ، وقد يُتحفك بهدية تقرّ بها عينك!

تهزين رأسك رفضًا للمساومة..

إذًا لماذا لا تستدعين صديقتك؟ لعلها تنتظر منك اتصالاً!

هل يغيظك مزاح أمك.. تعتقدينه استخفافًا!

يا لعقلك البريء.. كيف تتصورين ذلك؟!

ترفعين وجهك الغارق في الدموع..

تهتفين بصوت يتقطعه البكاء: أنت السبب يا ماما..

تُخفي الأم ضحكة مكتومة بحلقها.

لماذا تركت الباب مفتوحًا؟

يا حبيبتي هي لم تخرج صدقيني..

هي تخاف من الناس..

إذًا أين هي؟ لقد بحثت عنها في كل مكان بالبيت، إن كانت موجودة فلماذا لا

صوت لها؟

يحط الصمت على الأم، لقد أعيتها الحيَل..

هي واثقة أن القطة لم تخرج من البيت..

وأنها منزوية بركن ما هنا أو هناك.

لكنَّ البنت قلبها ملتاع، فماذا تفعل؟

بَدَرت لعقلها فجأة فكرة

ذهبت إلى ثلاجة الطعام، أخرجت سمكه مجمدة،

تركتها بطبق بعض الوقت لتلين.

حملت الطبق وراحت تجوب به المنزل، لعل رائحة السمكة تستفز القطه فتخرجها من مكمنها..

لكن عبثًا..

استدارت إلى غرفة البنت، تفاجأت بها واقفةً في مواجهتها.

ابتسمت: هل عثرتِ عليها؟

كانت البنت تمسك هاتفها..

صديقتها تسكن في الشقة المجاورة

طلبت منها الخروج إلى الشرفة!

سترين مشهدًا يسعدك.

أمسكت الأم بمعصم البنت

اتجها إلى الشرفة

هناك بين قصارى الزهور على السور كانت القطة تجلس..

تُطلّ على العالم الخارجي من مرتفعٍ..

تتابع السيارات المارقة بفضول..

توزِّع بصرها على العابرين.

# حدوتة أم جمال

اسمها سُمية..

يقولون: إنها من قليوب، لكن الحقيقة أنها من أنشاص (تبع الشرقية) عندها ولدان وثلاث بنات..

جمال الكبير يشتغل في مدينة العبور..

والثاني أحمد نجار مسلح، لكنه يؤدي الخدمة بالجيش حاليًا.

البنات: مديحة ست بيت لم تكمل تعليمها متزوجة وعندها ٣ أولاد، كبيرهم في ثانية إعدادي.

سحر أنهت دبلوم الصنايع ومخطوبة، كانت تشتغل في مصنع ملابس، لكن خطيبها أجلسها في البيت لغيرته الشديدة عليها.

آية.. آخر العنقود في كلية الحقوق حاليًا، تقدم لها ابن عمها الذي يعمل مندوب مبيعات في السعودية، رفضته؛ لأن عينها من أحد زملائها، واتفقا على الارتباط بعد انتهاء الدراسة.

أبو جمال الله يرحمه كان سائق ميكروباص على خط مسطرد..

مات بسبب السّكَّر، لم يترك لهم غير البيت الذي يعيشون فيه وليس له معاش حكومي.

من يومها أم جمال سيدة مُكافحة، حتى وزوجها على قيد الحياة..

كل يوم صباحًا تأخذ بضاعتها وتركب قطار الساعة السادسة مع السيدات الأخريات إذا توجهوا إلى شبرا..

أما إذا توجهوا إلى المطرية فيتفقون مع سائق سيارة داتسون يأخذهم ويُرجعهم.

معروفة أم جمال بطيبتها.. ومساعدتها لكل الناس..

بنت بلد أصيلة، وفي حالها.

(ملهاش دعوة باللي بيحصل في البلد)

أبت أن تتزوج ابن خالها بعد موت زوجها (أبو جمال)، رغم أنها كانت لازالت

في نشوة حلاوتها وأنوثتها.

قالت لهم: مَن يتحمّل (كوم اللحم اللي في رقبتي).. ووهبت نفسها لأبنائها.

جمال وأحمد ألحّا عليها كي ترتاح وتكفّ عن الشغل.. لكنها رفضت، ليس لأنها (تحب الشغل والبهدلة)؛ بل لأنها تريد إكمال مشوارها حتى تزوج البنت الصغيرة.

تقول للنسوة: إن حياتها رسالة أوقفتها لأبنائها، وإن سعادتها أن ترى بناتها مستورات ببيوتهن

ومسك ختامها أن تحمل بأحفادها على حجرها تحت ظل حائط الدار.

# شيكولاته

تمددت على الأريكة...
طالعت الحجرة الخاوية من الحياة...
ساءها الإحساس بالوحدة
أطبقت عليها وحشة الغربة
اعتدلت وجلست تُقلِّب صفحات الأصدقاء على الفيس
ما إن لاح وجودها لهم على الشات حتى تسارعت الرسائل والحوارات
لم يكن هذا ما تبحث عنه
في صدرها ظمأ لألفة الأوراق
نحّت اللاب جانبًا احتست رشفة من الشاي
تبعته بقطعة شيكولاته
تسلل إلى خلجاتها إحساس بالدفء الرومانسي
أدارت جهاز الكاسيت القديم على موسيقى كلاسيكية
مدَّت يدها إلى ديوان شعر كانت ابتاعته ضمن آخر جولة بين مكتبات سور الأزبكية
تدفقت السكينة إلى أوصالها
غاب وعيها مع الأبيات الشعرية
هامت مشاعرها مع المجهول..

## دمي من دمك

عدوت بكل قواي..
تحت وقع صوت دبدباته العنيفة خلفي...
ماذا لو أطلق الرصاص إذا ما أيقن بانفلاتي من قبضته؟
لمن أترك أبي الشيخ القعيد!
ومن سيرعى أمّا ليس لها ابنًا سواي..
لون الدم...
دبدبات البيادة
جدران المعتقل
الإذلال..
القهر...
للوهلة الأولى تتداعى كل المشاهد لذكريات لم أحياها واقعًا
غير أنها ترسّخت عبئًا في الكوابيس
أنتبه لحظة أن الدبيب قد توقف
أحتمي بجدار
أميل برأسي إلى الخلف
أين مُلاحقي ذي البذة الكاكية
يأتيني صَوته خافتًا قريبًا جدًّا يهاتفني بوُدٍّ:
انطلق.. اذهب بسرعة...
لا تخف لن أتسبب في إيذائك...
أنا دمى من دمك..
لم أستوعب..
لم أفهم....
غير أنى أدركت أني سأعود لأبي القعيد وأمي الوحيدة
ومحبوبتي التي أشقاني وصالها بين الميادين.

## اقلبوا الطاولة

سجِّل اعترافك
لكني لم أرتكب جُرمًا
كل الأدلة ضدك
وهل الكلمة جريمة؟
أنت تحرِّض على قلب الطاولة في مقالاتك
أَلَم تَقُل في مقالك الأخير: اقلبوا الطاولة.
نعم قلت، وهل في ذلك تهديد؟
نعم نحن جهاز أمن الطاولة
إذًا تحيا الطاولة.. تحيا الطاولة

## أموات

تكلَّمَ كثيرًا
ما من رَدّ
فتَح باب الواقع
أنصتَ لوقع الصمت الضارب بالمكان
هل هجرته الأصوات إلى الأبد؟
هل تذهب كلاماته أدراج الرياح!
أم يُبقيها خامدةً بين قضبان الوعي؟
هم هناك إذًا
حبيسي الفضاء الأزرق
أدار بثًّا حيًا على موقعه الإلكتروني
صرخ: أيها الأموات إني أتكلم.

## همسة في أذن صمَّاء

هل نسيتَ ماضينا وأوغلت في النأي بُعدًا
كنتُ أسابق الأيام عدًّا في انتظار الوعد
خِلتُ أنك سترحل ما شئت في البوادي والمدن
وستؤوب حتمًا لعُشِّي
انتظرت حنينك لمرفأي
وتلحفت بالصبر في بارد الأيام
صبر.. هههه
يا له من وَهْم مُرّ المذاقِ
قُل لي وأفصح:
هل للمنتهى اقتراب؟
لا لن أفيض أدمعًا
سأظل متحصنةً بقوة أنثى تأبى الانكسار
يا مَن بعثرت أوراق عشقي تحت أقدام الغياب

## شمعة كاذبة

كان علينا أن نُقرَر إما أن نستمرّ في درب واحد لا شُعاع أمل يبدِّد ظلمته..
أو أن نفترق ويقرَر كلٌّ منا مصيرًا مختلفًا عن الآخر..
قالت لي: صدقًا قلبي يريد رُفقتك بَيْدَ أنَّ للعقل حساباته المختلفة
والدرب قَفْر، والسماء غيوم، والبحر صخب..
صمتَّ؛ فماذا تفيد عبارات العشق مع حسابات العقول؟!
بعد أعوام من الفراق التقينا محض صدفة..
كانت ترنو إليّ وَجِلةً، غير أني أزلت مسافات السنين
ابتسمتُ فدنتْ..
ودار بيننا حديث طويل ليس بينه عتاب.. ليس إلا هالة من كبرياء
بحنْكَة أومأتُ برأسي
وأشرتُ إلى شمعةٍ في الطرف على وشك الأفول
هتفتُ: ما أغباها حين تحترق كي تنير للآخرين...

# غُربة

طاب مساؤك يا أبي

اليوم حُزْتُ الدرجات النهائية في العلوم والعربي واللغة الإنجليزية والرياضيات والدراسات..

المدرسون طلبوا لقاءك..

غدًا سأستلم جائزتي بمفردي؟

استحلفت أمي أن تطلب منك الحضور

فلم تُجبني إلا بدموع

أبي تبعثرت منا السنون

وأنت في ترحالك مفتون.

## الأصم الأبكم

لا تكثر الجدال
قالها الأستاذ حاسمًا نقاشًا مع طالب.

في المساء وأثناء مذاكرته لولَده كَثُرَ جدال الأخير في مسألة
زجَره مُعَنِّفًا: لا تُكثر الجدال..

بعد أيام جاءه استدعاء من مَدرسة الولد..
كُتِبَ فيه: ابنك يعاني بلادةً في الاستيعاب.

## براءة

وقف خلف النافذة فَرِحًا بنقر المطر..
لا يدري كيف يتفاعل مع المشهد..
أمّه ترقبه في صَمْت وشفتاها تتمتم بأدعية وأذكار
سحبت التاب، مدَّته إليه
(صَوِر يا وليد المطر)
نحّى الولد التاب
راح يدور بالغرفة قفزًا
يضرب بكفيه مصفقًا..
يا مطرا رُخِّي رُخِّي

## دم بارد

بدم بارد وضع السّمّ على قطعة الطماطم.. ثم دفعها إلى المصيدة أسكنها أسفل الحوض
أطفأ الأنوار.

في الصباح انتشته سعادة مَنْ نالَ كنزًا من السماء..

إذ رأى غريمه الصغير حبيس المصيدة مستسلمًا من أثر السّمّ..

بدم بارد رفع المصيدة بداخلها الحيوان الصغير يتقافز شعورًا بدنو نهاية مفجعة.

بدم بارد رفع الماء المغلي وصار يسكبه ببطء على الرأس الدقيق..

بدم بارد نزل الدَّرَج حاملاً المصيدة وبداخلها قبع الجسد هامدًا مفارقًا للحياة

بدم بارد.. رفع غطاء المصيدة..

ألقى بالجثة إلى القمامة...

كم أنت قاسٍ أيها الإنسان!!

# الفهرس

## المحتويات

الإهداء..... ٥
المقدمة..... ٧
الربيع يتجدد كل عام ..... ٨
الربيع يتجدد كل عام ..... ١٤
الربيع يتجدَّد كل عام ..... ٣٥
ملح الأقدام ..... ٤٣
وهم..... ٤٥
أكل العيش..... ٤٨
حدوتة سليمان..... ٥١
وداعًا سرقسطة..... ٥٣
ذلك الشيء ..... ٥٦
جيسيكا مرةً أخرى..... ٥٩
ديار..... ٦٢
أربعينية..... ٦٣
حرْث الدُنيا..... ٦٧
أشواقُ طائر..... ٧٠
حدوتة عبد الجبار..... ٧٣
من القاتل؟..... ٧٥
الكرة على سطح حارتنا..... ٧٧
ومضة روح..... ٧٩
مخلوق على الحافَّة ..... ٨١
حدوتة أم جمال ..... ٨٣
شيكولاته ..... ٨٥
دمي من دمك ..... ٨٦
اقلبوا الطاولة..... ٨٧
أموات ..... ٨٨
همسة في أُذن صمَّاء ..... ٨٩
شمعة كاذبة..... ٩٠
غُربة ..... ٩١

الأصم الأبكم ..... ٩٢
براءة ..... ٩٣
دم بارد ..... ٩٤
الفهرس ..... ٩٥